# مقاربات

مجلة فصليّة

أبحاث ومقالات في الشريعة والفكر والحضارة

المجلس الإسلامي السوري
SURİYE İSLAM KONSEYİ | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

- دور الإعلام في نشر المفاهيم الخاطئة نتفليكس نموذجا
- منظومة القيم وتجلياتها في النظام الإسلامي السياسي
- منظمات المجتمع المدني السوري بين الواقع والمأمول
- الوعي الحضاري
- أعمال القلوب وأثرها في التشريع الإسلامي

العدد 9 جمادى الأولى 1442 هـ / كانون الأول 2020م

هيئة التحرير
رئيس التحرير: الدكتور عبد العزيز محمد الخلف
مدير التحرير: الأستاذ الدكتور حسن أحمد الخطاف
مستشار علمي: الدكتور حسين عبد الهادي
مستشار علمي: الدكتور محمد أيمن الجمال
المحرر: الأستاذ محمد علي النجار

مقاربات
تصدر عن
المجلس الإسلامي السوري

المسجد الأموي ـ حلب

المقالات الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

البريد الإلكتروني للمجلة: jou@sy-sic.com

# الفهرس

تاريخنا والنقد ـ د. عبد العزيز محمد الخلف ..... ٢

أعمال القلوب وأثرها في التشريع الإسلامي ـ د. محمد تركي كتوع..... ٥

منظومة القيم وتجلياتها في النظام الإسلامي السياسي ـ أ. د. حسن الخطاف..... ١٦

مع الطنطاوي (في سبيل الإصلاح).. لنكون جميعًا مشاريع إصلاح ـ د. ياسين عبد الله جمّول ..... ٢٣

دور الإعلام في نشر المفاهيم الخاطئة.. نتفليكس نموذجًا ـ د. عبد العزيز محمد الخلف..... ٣٣

فلسَفةُ الأَخذِ والعَطاءِ في الإسلام .. وجهُ الإنسانيةِ المُشرِق ـ د. عماد كنعان..... ٤١

القيم الإنسانية والسياسة بين النظرية والتطبيق.. أحداث فرنسا وأمريكا ـ الأستاذ: نبيل شبيب ..... ٤٩

المعلم بين الكتاب المنظور والكتاب المسطور ـ د. عبد الجواد حردان ..... ٥٩

الوعي الحضاري ـ د. عبد الكريم بكار..... ٦٩

منظمات المجتمع المدني السوري الجذور والواقع والمستقبل ـ الباحث: محمد علي النجار ..... ٧٢

## كلمة رئيس التحرير

# تاريخنا والنقد

د. عبد العزيز محمد الخلف

يبدو أن الرغبة في فهم الماضي هي حاجة بشرية مشتركة، فقد ظهرت حكاية التاريخ على نحو منفصل في الحضارات المختلفة في جميع أنحاء العالم.

والتاريخ هو جملة الأحوال والأحداث التي يمر بها كائن ما، فردًا أو مجتمعًا، كما يصدق على الظواهر الطبيعية والإنسانية. والتاريخ أيضًا علم يبحث في الوقائع والحوادث الماضية. وحقيقته كما قال ابن خلدون: (خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس، والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال)[١].

والتاريخ علم مهم لحياة البشرية، ولكن لا تتم الاستفادة منه على أكمل وجه إلا بعد امتلاك معارف متنوّعة وحسن نظر وتثبّت يفضيان بصاحبهما إلى الحقّ، وينكّبان به عن المزلّات والمغالط؛ لأنّ الأخبار ـ كما يقول ابن خلدون ـ (إذا اعتمد فيها على مجرّد النّقل ولم تحكَّم أصول العادة وقواعد السّياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنسانيّ ولا قيس الغائب منها بالشّاهد والحاضر بالذّاهب فربّما لم يؤمن فيها من العثور ومزلّة القدم والحيد عن جادّة الصّدق)[٢].

> ولكن مما ينبغي الانتباه إليه أن لكل أمة في التاريخ ظروفها وأحوالها، فلا يصلح ـ والحالة هذه ـ أن نحاكم تاريخ الأمس بمنظار اليوم، بل لا بد من نقده مع استحضار ظروفه وأحواله كافة.

وقد أولع بعض الناس بنقد التاريخ والنيل من رموزه وانتقاص أحداثه بسبب قياسهم الماضي بالحاضر، وهو خطأ منهجي بيِّن، لذلك لا بد عند دراسة التاريخ ومقارنة تاريخ بآخر من استحضار

(١) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص (٤٦).

(٢) مقدمة ابن خلدون، (١٣).

عدة أمور منها:

١. **شكل الدولة**: فالدول القديمة كانت بمعظمها دولًا شموليةً فردية، وحين مقارنة دولة بدولة لا بد من أن تكون الدولتان في عصرٍ واحدٍ حتى تصح المقارنة، أما مقارنة دولة قديمة بأخرى معاصرة فهذا ظلم وإجحاف في المقارنة، وقد كانت الدولة الإسلامية في سائر العصور القديمة متقدمة على كل الدول التي كانت في الفترة ذاتها، فالقضاء مستقل، والحاكم عرضة للنقد والمساءلة أمام أهل الحل والعقد، والتعليم متطور والدولة لا تتدخل فيه، فإذا قارنته بالدول التي كانت قائمة وقتها وجدتَ نتيجة المقارنة لصالح تاريخنا. أما مقارنة شكل دولة ما في عصر قديم بشكل الدولة المعاصرة فهو ظلم وبعد عن الصواب في المقارنة.

٢. **التفريق بين الراعي والرعية**: قد يكون بعض الحكام ظلمة أو فساقًا، وقد لا يتمتعون بسيرة مرضية، وهذا لا يدل على فساد الدولة بأكملها، بل كان عموم الشعب على غير سيرة الحاكم، ملتزمًا بأحكام الإسلام، سائرًا وفق أحكام الشريعة المطهَّرة، فلا يصح وصف حقبة تاريخية بوصف ما لأن حاكم تلك الحقبة كان فاسدًا، فلا بد ـ حين الحديث عن تاريخ دولة ما ـ من تبيان الحالة المجتمعية وعدم إغفالها. والعجيب أن أكثر من يكتبون عن التاريخ يغفلون الحالة المجتمعية ويركزون على الحالة السياسية، مع أن دراسة أحوال المجتمع والناس قد تكون أكثر أهمية من دراسة الحالة السياسية، لاتساع الشريحة المجتمعية بخلاف الشريحة السياسية.

> الدارسات التاريخية المقارنة تستلزم معرفة واسعة واطلاعًا كبيرًا وأدوات نقدية متنوعة

٣. **سلطات الحاكم**: كان الحاكم في كثير من دول العالم يتمتع بسلطات مطلقة، ولكن الدولة لم تكن في وقتها من التطور بحيث تتوغل في كل مفاصل الحياة، بل تُرِكَت كثير من القضايا للناس يُمضون فيها رأيهم ما لم يكن الحاكم فيها طرفًا، وفي الدول الإسلامية لم يكن السلطان يملك التصرف في كل شيء، بل كان التعليم مستقلًا والقضاء مستقلًا، وإنفاق الدولة على الخدمات ما كان بصورته اليوم، ولم تكن مؤسسة الجيش كما هي عليه اليوم، وبالتالي فإن كثيرًا من جوانب القصور التي تنسب للراعي لم تكن ضمن سلطاته أصلًا، وما تغولت الدولة في شؤون القضاء والتعليم إلا في العصور المتأخرة وفي الدولة الحديثة بشكل خاص.

٤. **مصدر المعلومات التاريخية**: فكثير من المعلومات التي يوردها كبار كتاب التاريخ الإسلامي هي محل نظر، حيث يوردونها دون تحقيق أو تمحيص أو تمييز بين الغث والسمين، ولو قرأت في تاريخ الطبري وهو يروي عن أبي مخنف الشيعي الرافضي الكذاب لوجدت العجب العجاب من كثرة الغث الذي يورده، فإن لم تكن على دراية بحال أبي مخنف فإنك ستحتار بما تسمع، هل تصدِّق ما تقرأ أو تكذِّب؟، وما هو ميزانك في ذلك؟. ولعله يشفع للطبري وغيره أنهم يوردون الروايات بأسانيدها، ويُتبِعون الرواية الباطلة بأخرى سليمة، وبذلك تعتدل كفتا الميزان، ولكن القارئ قد يركن إلى بعض الروايات ويعجَل قبل أن يصل إلى الروايات الأخرى. فلا بد من نقد الروايات قبل استعمالها في المقارنة.

ولذلك فإن الدارسات التاريخية المقارنة تستلزم معرفة واسعة واطلاعًا كبيرًا وأدوات نقدية متنوعة، وإلا وقع الناقد المُقارِن في الخطأ ومجانبة الصواب من حيث يظن نفسه يحسن صنعًا.

# أعمال القلوب وأثرها في التشريع الإسلامي

د. محمد تركي كتوع
دكتوراه في الفقه الإسلامي وأصوله مدرس في أكاديمية باشاك شهير

## مقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

إن الشريعة الإسلامية هي خاتمة الشرائع السماوية، ولذلك كانت متصفة بالكمال والشمول والبقاء والخلود، هدفها تحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة، فرسالتها متوازنة تحقق التناغم والانسجام بين الدين والدنيا، والروح والجسد، اهتمتْ بصلاح القلب وصفائه واستقامته كاهتمامها بالجسد وصحته وسلامته، ولكنها في الوقت ذاته أعطتْ القلب دور الريادة والقيادة والتوجيه، والجوارح تستجيب لندائه وتخضع لسلطانه، فالقلب هو المحور والمركز والقائد، وبأمره يتحرَّك الجسد، وكلُّ قلب بالذي فيه ينضح، فإذا استقام القلب استقام الجسد، وإذا مال القلب مال الجسد.

## أهمية الموضوع:

إنَّ هذا الموضوع له أهمية كبرى في الواقع العملي؛ لأنَّ أغلب الفساد الذي نراه في سلوك المكلفين وانحراف الجوارح وعصيانها سببه الرئيسي فساد القلب وخرابه، لذلك اهتمت الشريعة الإسلامية بشأن القلب وجاءت الأوامر بضرورة تعهّده ومراقبته، لعِظم المصالح المترتبة على مراعاته وإصلاحه، وفداحة المفاسد والأضرار المترتبة على إهماله وإغفال شأنه.

> الجوارح أتباع وخدم وآلات، يستخدمها القلب، ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية، والصانع للآلة

قال الإمام الغزالي: (الجوارح أتباع وخدم وآلات، يستخدمها القلب، ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية، والصانع

للآلة... وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرِّد على الله تعالى، وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره، وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه، إذ كل إناء ينضح بما فيه)[1].

وقال أيضًا: (كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح، حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعلٍ يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب)[2].

ونظرًا لأهمية هذا الموضوع وعظيم أثره في الواقع العملي أردتُّ الإضاءة عليه ولفت الانتباه إلى خطره وضرورة الاعتناء بشأنه، فلا صلاح للجوارح دون صلاح القلب، ولذا يجب على العاقل أن يلتفت إلى الاعتناء بسلامته، والحرص على استقامته؛ وبذلك يجني العبد مصالح الدنيا والآخرة، ويدفع عن نفسه الشرور والمفاسد.

## أسباب اختيار الموضوع:

ثمة عدَّة أسباب دفعتني لاختيار هذا الموضوع والكتابة فيه، من أهمِّها:

١ـ ما نشاهده في العصور المتأخِّرة من طغيان سلطان المادة على الروح، وكثرة الاهتمام بالجسد وشؤونه وقلَّة الاهتمام بالقلب وإصلاحه، وهذا انقلاب على المفاهيم وخلل في الأولويات، وهذا الخلل ترتب عليه مفاسد كبيرة وأضرار جسيمة، على الفرد والمجتمع، فجاء هذا البحث كمحاولة للفت انتباه المكلَّفين بضرورة إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، وذلك من خلال الاهتمام بصلاح القلب والعمل على تصفيته وتنقيته؛ لأنه الأساس والأصل لسعادة المرء في الدنيا والآخرة.

٢ـ ربَّما هناك من يتوهَّم أن التشريع الإسلامي العملي لا علاقة له بالقلب وأعماله، ويظنّ أن دائرة اهتمام التشريع هي الأحكام الفقهية العملية المتعلّقة بالجوارح فقط، فيظنَّ أنَّ هناك افتراقًا وانفصالًا بين أعمال القلب وأعمال الجوارح، فكان لا بدَّ من التنويه على هذا الخطأ، وأن العلاقة بين القلب والجسد هي علاقة تلازم وتأثير متبادل لا تقبل الانفصال أبدًا.

## خطة البحث:

جاء هذا البحث في مقدمة وخمسة مطالب وخاتمة، كالآتي:

المطلب الأول: العقيدة الإسلامية وأثرها في التشريع الإسلامي، المطلب الثاني: أدلَّة الشرع على الارتباط بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، المطلب الثالث: مؤاخذة العبد على أعمال القلب، المطلب الرابع: الأثر السلوكي المترتب على العلاقة بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، المطلب الخامس: الحكم على ما في القلوب من شأن الخالق لا المخلوق، والخاتمة.

(١) إحياء علوم الدين (٢/٣).
(٢) إحياء علوم الدين (٥٩/٣).

## المطلب الأول

## العقيدة الإسلامية وأثرها في التشريع الإسلامي

العقيدة ومبادئها وأصولها كما هو معلوم محلّها القلب، وهذه العقيدة هي التي توجِّه السلوك وتكون أعمال الجوارح على وفقها، قال الطاهر بن عاشور: (أعمال العاملين تجري على حسب معتقداتهم وأفكارهم، فجديرٌ بمن صلحت عقائده وأفكاره أن تصدر عنه الأعمال الصالحة، ولذلك كان أسلوب الإسلام في الأمر بالأعمال الصالحة والنهي عن أضدادها أن يبتدئ بإصلاح العقيدة)[1].

إنَّ من مميزات التشريع الإسلامي أنه تشريع قائم على العقيدة، فضمانة التنفيذ للتشريع لا تجيء أبدًا من الخارج، إن لم تنبثق وتتعمَّق في أغوار الضمير، فقد ربطَ الإسلام تنفيذ تشريعاته بشعور المؤمن بمراقبة الله تعالى له في كل مكان وفي كل زمان، وجعل هذه المراقبة الضمان الكامن في ذات الأنفس، فوق كل الضمانات الأخرى، فكان للتشريع الإسلامي من ضمانات التنفيذ ما ليس للشرائع الوضعية التي لا تستند إلا للرقابة الخارجية!

وفي الحقيقة إنَّ هذه الأرض لا تصلح بالتشريعات والتنظيمات، ما لم يكن هناك رقابة من التقوى في الضمير لتنفيذ التشريعات والتنظيمات، وهذه التقوى لا تجيش تجاه التشريعات والتنظيمات إلا حين تكون صادرة من الجهة المطَّلِعة على السرائر الرقيبة على الضمائر، عندئذ يحس الفرد وهو يهم بانتهاك حرمة القانون أنه يخون الله، ويعصي أمره، ويصادم إرادته؛ وأن الله مطَّلِع على نيته هذه وعلى فعله، وعندئذ تتزلزل أقدامه، وترتجف مفاصله، وتجيش تقواه، فالله تعالى أعلم بعباده، وأعرف بفطرتهم، وأخبر بتكوينهم النفسي والعصبي ـ فهو خلقهم ـ ومن ثم جعل التشريع تشريعه، والقانون قانونه، والنظام نظامه، والمنهج منهجه، ليكون له في القلوب وزنه وأثره ومخافته ومهابته، وقد عَلِمَ ـ سبحانه ـ أنه لا يطاع أبدًا شرعٌ لا يرتكنُ إلى هذه الجهة التي تخشاها وترجوها القلوب، وتعرف أنها مطَّلِعة على خفايا السرائر وخبايا القلوب، وأنه مهما أطاع العبيد تشريع العبيد تحت تأثير البطش والإرهاب والرقابة الظاهرية التي لا تطلع على الأفئدة، فإنهم لا بدَّ متفلِّتون منها كلما غافلوا الرقابة، وكلما واتتهم الحيلة، مع شعورهم دائمًا بالقهر والكبت والتهيؤ للانتقاض[2].

ولهذا أصبحت القوانين أخيرًا تتطلَّع إلى هذا الجانب العظيم في الشريعة وهو العقيدة، وتحاول جاهدة التوفيق بينه وبين قواعدها، وتسعى لتقنين القواعد الأخلاقية في قواعد قانونية تدريجيًا، وكان هذا أمل الفلاسفة والمصلحين في الماضي، وهو أمل

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام للطاهر بن عاشور ص (٦٣).

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤٣/٢.

البشرية في الحاضر، ومهما حاولت بعض القوانين التنكُّر للعقيدة فسرعان ما تعود إليها تتلمَّس فيها الحلول عندما تقف عاجزة عن ضبط تصرفات الأفراد، ويفلت الزِّمام منها، فجميع القوانين لجأت إلى ذلك في مجال الإثبات عندما تضاءلت الوسائل المادية عن الوصول إلى الحقيقة، وتوقَّفَتْ حائرةً أمام المتداعيَين، فاضطرت إلى العودة إلى العقيدة، تستنجد بقواعدها، وتلتجئ إلى عرينها، وترضى بالاحتكام إلى ضمير الخصم وعقيدته، وتطلب منه اليمين على الفعل أو عدم الفعل، وعلى الاستحقاق وعدم الاستحقاق.

قال الشيخ مصطفى الزرقا: (إنَّ الوازع الديني في صيانة الحقوق مهما ابتعدت عنه الأمم في نزعتها المادية بنظامها الاجتماعي اليوم فقد اضطرت إليه في تشريعها القانوني الوضعي المحض، وبَنَتْ عليه نواحي من قضائها، لم تستطع فيها إلا الالتجاء إلى الضمانة الدينية والوجدان الروحي، ويتجلَّى ذلك في تحليفهم الخصمَ اليمين عند عجز المدَّعي عن إثبات دعواه)[1].

فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولًا وعملًا، وهذه الحقيقة أكَّدتها آيات قرآنية كثيرة، تربط بين الإيمان والعمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

قال الزمخشري: (الإيمان الذي يستحقُّ به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة، هو إيمان مقيَّد، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح، والإيمان الذي لم يُقْرَن بالعمل الصالح، فصاحبه لا توفيق له ولا نور)[2]، (فالإيمان قوة عاصمة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات، ومن ثَمَّ فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير أو ينفّرهم من شر، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم، وما أكثر ما يقول في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ثم يذكر ـ بعدُ ـ ما يُكلفهم به)[3].

ولذلك كان تنفيذ الأوامر والنواهي موكولًا إلى دين المخاطَبين، إذ أُنيطَ تنفيذ معظم الوصايا الشرعية بالوازع الديني، وهو وازع الإيمان الصحيح المتفرِّع إلى الرجاء والخوف[4]، فالحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقَّت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد، يملك السلطان على الضمائر والسرائر، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك، فأما حين تتوزع السلطة، وتتعدد مصادر التلقي، حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر، بينما السلطات لغيره في الأنظمة والشرائع، وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة، بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا، حينئذ تتمزَّق النفس البشرية بين سلطتين

(١) المدخل الفقهي العام ٦٩/١.

(٢) الكشَّاف عن حقائق التنزيل للزمخشري ٣١٦/٢.

(٣) خُلُق المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ١١.

(٤) مقاصد الشريعة الإسلامية لمحمد الطاهر بن عاشور ص ٣٦٧.

مختلفتين، وبين منهجين مختلفين، وحينئذ تفسد الحياة البشرية[١].

فالعقيدة الإسلامية لها أثر كبير في تربية الضمير، وتهذيب النفس، وتنمية الوازع الديني وتقوية جذوره في القلوب، وبما أنَّ العقيدة محلّها القلب، والعمل والالتزام بالأحكام الشرعية محلُّه الجوارح، لذلك فإنني أنتقل إلى عرض بعض الحقائق التي تُبيِّن وتؤكِّد هذه العلاقة التأثيرية المتبادلة بين القلب والجسد.

## المطلب الثاني

## أدلة الشرع على الارتباط بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح

نذكر فيما يأتي بعض الأدلَّة الشرعية التي تثبت هذه العلاقة المتبادلة والتفاعل المستمر بين القلب والجسد، ومن هذه الأدلة على سبيل المثال لا الحصر:

[١] ـ قول الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وجه الاستدلال بالآية: يخاطب الله تعالى نساء النبي ﷺ: ليس قَدْرُكنّ عندي مثل قدر غيركنَّ من النساء الصالحات، أنتنَّ أكرمُ عليَّ، وثوابُكنّ أعظمُ لديَّ، فلا تَلِنَّ بالقول للرجال، ولا تُرقِّقن الكلام، فيطمع الذي في قلبه مرض، وقيل في مرض القلب هنا أنه النفاق، وقيل: إنه الفجور والشهوة والميل إلى الزنا، فهو لضعف إيمانه في قلبه؛ متهاون بإتيان الفواحش، فدلَّ ذلك على أنَّ ضعف الوازع الديني في القلب هو سبب الوقوع في المخالفات[٢].

والمرض في القلب كالمرض في الجسد، فكما أنَّ هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال من غير موت، فكذلك قد يكون في القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال من غير أن يموت القلب، سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه، أو أفسد عمله وحركته، وذلك ـ كما فسروه ـ: هو من ضعف الإيمان، إما بضعف علم القلب واعتقاده، وإما بضعف عمله وحركته[٣].

[٢] ـ عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ»[٤].

وجه الاستدلال بالحديث: إنَّ صلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب، وفساد الأجساد

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٣٧٤/٢.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ٢٥٨/٢٠ ـ الدر المنثور للسيوطي ٥٩٩/٦ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ٥/٢٢.

(٣) مجموع الفتاوي لابن تيمية ٤٤٨/٢٨.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، واللفظ له، رقم الحديث(٥٢) ٢٨/١ ـ وأخرجه مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم الحديث (٤١٧٨) ٥٠/٥.

موقوف على فساد القلوب[١]، فالقلب كالمَلِك، والأعضاء كالرعية، لذلك يجب مراعاته، فإن صدر عنه إرادة صالحة تحرَّك الجسد حركة صالحة وبالعكس، وهذا معنى ما قيل: الناس على دين ملوكهم، والإناء يترشَّح بما فيه[٢]، قال الحافظ ابن حجر: (وخُصَّ القلب بذلك؛ لأنَّه أميرُ البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قَدْرِ القلب، والحث على صلاحه)[٣]، وقال الطاهر ابن عاشور: (فساد القلب ينشأ عنه فساد الأعمال)[٤].

وقال أبو الليث السمرقندي: (يُقال: القلب آمرٌ للجسد بالسوء والإثم)[٥].

[٣] ـ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[٦].

وجه الاستدلال بالحديث: إنَّ نظر الله عزّ وجلَّ إلى القلب فيه دلالة على أهميته وعظيم أثره، وتقديم النظر إلى القلوب على النظر إلى الأعمال في الحديث يدلُّ على أنَّ القلب هو الأساس والمنبع والمصدر، إذ منه تنبعث الأعمال، وعنه تَصْدُرُ التصرفات والأفعال، إذ إنَّ الجوارح مسخَّرة له ومطيعة، فما استقرَّ فيه ظهر عليها، وعملت على مقتضاه: إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشرّ، ولمَّا ظهر ذلك وجبت العناية بالأمور التي يصلح بها القلب ليتصف بها، وبالأمور التي تفسد القلب ليتجنبها[٧].

وجاء في حِكَم ابن عطاء الله السكندري: (تنوَّعتْ أجناس الأعمال بتنوُّع وارداتِ الأحوال).

ومعنى هذه الحكمة: قد تنوعت أجناس الأعمال الظاهرة بتنوع الأحوال الباطنة، أو تقول: أعمال الجوارح تابعة لأحوال القلوب، فإن ورد على القلب زهد وورع ظهر على الجوارح أثره، وهو ترك وإحجام، أي تأخُّر، وإن ورد على القلب رغبة وحرص ظهر على الجوارح أثره، وهو كدٌّ وتعب[٨].

## المطلب الثالث

## مؤاخذة العبد على أعمال القلب

إنَّ العبد مؤاخذٌ بأعماله القلبية كما هو مؤاخذ بأعماله الجسدية، فكلاهما محلٌّ للثواب والعقاب، قال القرطبي: (إنَّ الحَفَظَةَ تكتبُ

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١٦٧/١.
(٢) مرقاة المفاتيح لملا علي القاري ٢٤٩/٩.
(٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٢٨/١.
(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٢٤/٨.
(٥) تفسير بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي ١٩٧/٢.
(٦) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم الحديث (٦٧٠٨) ـ ١١/٨.
(٧) المفهم لما أشكل في صحيح مسلم للقرطبي ١١٦/١٤.
(٨) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسني ٢٤/١.

أعمال القلوبِ؛ خلافًا لمن قال: إنَّها لا تكتبُ إلَّا الأعمال الظاهرة)[١].

والأدلَّة على مؤاخذة العبد بأعماله القلبية كثيرة، منها:

١ـ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وجه الاستدلال بالآية: لقد نصَّتْ الآية على أنَّ عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر، في المؤاخذة والحساب، فلا يُعفى عنه[٢].

٢ـ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

ووجه الاستدلال بهذه الآية: التصريح الواضح بأنَّ العبد يحاسب على حبه لشيوع الفاحشة في الذين آمنوا، وهذا الحب من أعمال القلب، فدلَّ ذلك على أن من أعمال القلوب ما يؤاخذ عليه العبد[٣].

٣ـ قول الله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وجه الاستدلال بالآية: إنَّ الله تعالى أمر بترك باطن الإثم، وهي المعاصي القلبية، فظاهر الإثم: عمل الجوارح، وباطنه: عملُ القلب، من الكبر والحسد والعجب وإرادة السوء للمسلمين، وقيل: المراد بظاهر الإثم: الإقدام على الذنوب من غير مبالاة، وباطنه: ترك الذنوب لخوف الله عز وجل لا خوف الناس[٤].

٤ـ عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَكِلاَهُمَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ» قِيلَ فَهَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ»[٥].

وجه الاستدلال بالحديث: لقد نصَّ هذا الحديث على أن المقتول صار بمجرَّد الإرادة من أهل النار مع أنه قُتِلَ مظلومًا، فكيف يُظَنُّ أن الله لا يؤاخذ بالنية والهمِّ! بل كل همٍّ دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخَذ به، والنية والهمّ من أعمال القلب[٦].

وهكذا نجد نصوصًا كثيرة من الكتاب والسنة تدلُّ على هذا التلازم الواضح بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأنَّ ما كان في القلب ظهرت وفاضت آثاره على الجوارح.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم للقرطبي ١٠٧/٢.

(٢) إحياء علوم الدين ٤١/٣.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي فضلٍ الألوسي ١٢٢/١٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٧٤/٧ ـ لباب التأويل في معالم التنزيل المسمَّى بتفسير الخازن ١٧٧/٢ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ١٨٠/٣ ـ تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٢٥٣/٥.

(٥) أخرجه البخاري، واللفظ له، كتاب الفتن، باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما، رقم الحديث (٦٦٧٢) ٢٥٩٤/٦ ـ وأخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم الحديث (٧٤٣٤) ١٦٩/٨.

(٦) إحياء علوم الدين ٤٣/٣.

## المطلب الرابع

## الأثر السلوكي المترتب على العلاقة بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح

يقول الإمام الشاطبي في بيان هذا الأثر: (جُعلت الأعمال الظاهرة في الشرع دليلًا على ما في الباطن، فإن كان الظاهر منخرمًا حُكِمَ على الباطن بذلك، أو مستقيمًا حُكِمَ على الباطن بذلك أيضًا، وهو أصل عام في الفقه وسائر الأحكام العاديات والتجريبيات، بل الالتفات إليها من هذا الوجه نافع في جملة الشريعة جدًا، والأدلة على صحته كثيرة جدًا، وكفى بذلك عمدة أنه الحاكم بإيمان المؤمن، وكفر الكافر، وطاعة المطيع، وعصيان العاصي، وعدالة العدل، وجُرحة المُجَرَّح، وبذلك تنعقد العقود وترتبط المواثيق إلى غير ذلك من الأمور، بل هو كلية التشريع، وعمدة التكليف، بالنسبة إلى إقامة حدود الشعائر الإسلامية الخاصة والعامة)[١].

ويقول الغزالي: (لا يَضِيعُ مثقال ذرَّةٍ من الخير والشرِّ، ولا ينفك عن تأثيره في إنارة القلب أو تسويده، وفي تقريبه من الله أو إبعاده، فإذا جاء بما يقرِّبه شبرًا مع ما يبعده شبرًا، فقد عاد إلى ما كان، فلم يكن له ولا عليه)[٢].

فحسنُ أدب الظاهر عنوان أدب الباطن، وكذلك فإنَّ القلب يتأثَّر بحركة الجسد، فإن تحرَّكت الأعضاء للطاعة انبثق من هذه الحركة نور في القلب، وإن تحرَّكت للمعصية انبثق منها ظلمة في القلب، فالعلاقة بين القلب والجسد هي علاقة تأثيرية متبادلة.

ومن هذا الباب فقد حذَّرت الشريعة الإسلامية من التشبه بالكفَّار وتقليدهم في اللباس، وعلَّلَ ابن القيم ذلك بقوله: (المشابهة في الزي الظاهر تدعو إلى الموافقة في الهدي الباطن كما دلَّ عليه الشرع والعقل والحس)[٣].

> الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهرٌ بلا باطن له

هذا ولا يعني التنويه بأهمية أعمال القلوب وأنها الأصل وأعمال الجوارح تبع ومكملة، لا يعني ذلك التقليل من شأن أعمال الجوارح، أو ترك أعمال الجوارح على حساب أعمال القلوب، فأعمال القلوب غالبًا ما تقوم إلا بأعمال الجوارح،

(١) الموافقات في أصول الفقه للشاطبي ١/٢٣٣.
(٢) إحياء علوم الدين ٤/٣٨٤.
(٣) الفروسية لابن القيم ص ١٢١.

كما أن أعمال الجوارح لا تنفعه وتقبل إلا بأعمال القلوب.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهرٌ بلا باطن له، وإن حَقَنَ به الدماء وعَصَمَ به المال والذرية، ولا يُجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذَّر بعجزٍ أو إكراه أو خوف هلاك، فتخلُّف العمل ظاهرًا مع عدم المانع دليلٌ على فساد الباطن وخُلُوِّه من الإيمان، ونقصه دليلُ نقصه، وقوّته دليل قوّته)[1].

ولذلك نرى أنَّ الخوف وهو من أعمال القلوب يؤثِّر في حركة الجوارح بالكف والإقدام، يكفُّ المسلم عن المعاصي، ويحول بينه وبين مخالفة الشرع والخروج عن أحكامه، فالأثر الحقيقي للخوف يكون بكفِّ الجوارح عن المعاصي وتقييدها بالطاعات، قال القرافي: (الغالب على الناس أن يرتبط عصيانهم بعدم خوفهم)[2]، وقال العز بن عبد السلام: (إنَّ الخوف وازعٌ عن المخالفات لما رتَّب عليها من العقوبات، والرجاء حاثٌّ على الطاعات لما رتَّب عليها من المثوبات)[3].

## المطلب الخامس

## الحكم على ما في القلوب من شأن الخالق لا المخلوق

لا يجوز للعبد اتهام الناس بضعف أعمال قلوبهم، أو الحكم على نياتهم وسرائرهم، فما في القلوب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وقاعدة التعامل مع أعمال القلوب والجوارح هي: «نحن لنا الظاهر والله يتولَّى السرائر».

والدليل على ذلك:

حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلاَ يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[4].

وجه الاستدلال بالحديث: لقد ذكرَ النبي ﷺ بعبارة صريحة أنه إنما يقضي بين المتخاصمين بما سمع منهما ظاهرًا، لا بما علمَ عنهما باطنًا، ولا يجوز العدول عن المنهج النبوي في القضاء والتعامل مع العباد، قال الإمام الشاطبي: (فقيَّدَ الحكم بمقتضى ما يسمع وتركَ ما وراء ذلك، وقد كان كثير من الأحكام التي تجري على يديه يطَّلع على أصلها، وما فيها من حق وباطل، ولكنه عليه

(١) الفوائد، لابن قيّم الجوزية، ص٨٥.
(٢) الفروق للإمام القرافي ١/١٦٢.
(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام ١/١٦٨.
(٤) أخرجه البخاري، واللفظ له، كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت فقضي بقيمة الجارية الميتة ثم وجدها صاحبها، رقم الحديث (٦٥٦٦) ٦/٢٥٥٥ ـ وأخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم الحديث (٤٥٧٠) ـ ٥/١٢٨.

الصلاة والسلام لم يحكم إلا على وفق ما سمع، لا على وفق ما علم، وهو أصل في منع الحاكم أن يحكم بعلمه)[1].

ولقد أفتى الفقهاء المتأخرون من كافة المذاهب بعدم جواز قضاء القاضي بعلمه، سدًّا لذريعة الفساد أمام قضاة السوء، وذلك نظرًا لضعف الوازع الديني، وطغيان حب المادة على النفوس، حتى أصبح علم القاضي الشخصي مكتنَفاً بالظنون والرِّيَب، فلا يجوز القضاء على الناس بناء على ما في قلوبهم، وإنما يُحاكَم الناس على ظواهرهم.

ولمزيد الإيضاح نضرب بعض الأمثلة:

## المثال الأول:

قد يعمل الشخص عملًا ويفشل فيه، وهنا نجد أن بعض الناس يتخذون من فشل هذا الشخص في مشروعه مطيةً للتسلل إلى قلبه، ويعتبرون فشله دليلًا على فساد قلبه، وسوء طوّيته وسريرته. ومما يبين خطأ هذا الحكم قصة نوح عليه الصلاة والسلام الذي كان من أولي العزم من الرسل؛ فقد كانت زوجته وأحد أولاده كافرين؛ فليس لقائل أن يقول: أين تربيته لولده وزوجته؟! كما أن نتاج دعوته عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، فلا يمكن لقائل أن يقول: أهذا نتاج دعوة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤]؟!

وفي الحديث: «عرضت علي الأمم فرأيتُ النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد»[2].

وفي هذا السياق كم من العلماء الأجلاء في هذه الأمة ـ وقد شهد لهم بالعلم والفضل ـ أفنوا جلّ سني أعمارهم في العلم والتعليم، والكتابة والتأليف؛ فمنهم مَن كان له مذهب في الفقه متبع، اندثر مذهبه وعفى أثره، ومنهم من كانت له كتب ومؤلفات فقدت ولم يوجد لها أثر، أو وجد بعض أجزائها، فليس لطاعن أن يطعن في سرائرهم، أو أن يتهم نياتهم؛ فلا يعلم بالنيات إلا رب البريات.

## المثال الثاني:

قد يقع شخص في بعض المخالفات الشرعية والمعاصي الظاهرة، ولكن ليس لأحد أن يتهمه في باطنه، وليس هذا تعليلًا أو إعذارًا للعاصي، ولكنه تحذير من اتهام النيات والسرائر.

فقد يكون في قلب من عليه مخالفات شرعية من محبة الله ورسوله ما لا يعلمه إلا الله، ففي الحديث عن عمر بن الخطاب أن رجلًا كان على عهد النبي كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارًا، وكان يضحك النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يومًا فأمر به فجلد، فقال

(١) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي ٢٦٧/٢ ـ وانظر: شرح الزرقاني على الموطأ ٤٨٥/٣ ـ المغني لابن قدامة ٤٠١/١١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب مَن لم يُرقَ، رقم الحديث (٥٧٥٢)، وأخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم الحديث (٢٢٠).

رجل من القوم: اللّهُمَّ العنه، ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله»[1].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: (وفيه أن لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب؛ لأنه ﷺ أخبر بأن المذكور يحب الله ورسوله مع وجود ما صدر منه، وأن مَن تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة الله ورسوله)[2].

وقد يكون لمن عليه مخالفات شرعية خبيئة حسنة أو عمل صالح قد يكون سببًا في تكفير سيئاته، فلا يجوز للعبد أن يقتحم على الناس قلوبهم ويفتِّش ما فيها، وينصّب نفسه في عملٍ من شأن الخالق وليس من شأن المخلوق الضعيف، نسأل الله تعالى أن يكرمنا بالأدب في التعامل معه ومع مخلوقاته، إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## الخاتمة

بعد استعراض جزئيات هذا البحث وتفاصيله، فإنني أخلص إلى النتائج التالية:

١ـ إنَّ الجوارح أتباع وخدم وآلات، يستخدمها القلب، ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية، والصانع للآلة.

٢ـ إنَّ العلاقة بين القلب والجسد هي علاقة تلازم وتأثير متبادل، فكلّ صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح، وكل فعلٍ يجري على الجوارح، فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب.

٣ـ إنَّ التشريع الإسلامي قائم على العقيدة، وهذه العقيدة هي التي توجِّه السلوك وتكون أعمال الجوارح على وفقها، وكذلك فهي تعتبر بمثابة الضامن لتنفيذ أحكامه وأوامره، فقد ربطَ الإسلام تنفيذ تشريعاته بشعور المؤمن بمراقبة الله تعالى له في كل مكان وفي كل زمان.

٤ـ لقد دلَّت النصوص الشرعية على أنَّ العبد مؤاخذٌ بأعماله القلبية كما هو مؤاخذ بأعماله الجسدية، فكلاهما محلٌّ للثواب والعقاب.

٥ـ نحن العبيد لنا الظاهر، والله يتولَّى السرائر، فلا يطلع على ما في القلب إلا الله تعالى، ولا يجوز للعبد أن يخترق أسوار القلوب ويحكم على الناس بما فيها، فهذا من شأن الخالق وليس من شأن المخلوق الضعيف.

## التوصيات:

أوصي نفسي والقرَّاء الكرام بضرورة ملاحظة أمر القلب، والاهتمام البالغ بإصلاحه بكل الوسائل المتاحة والممكنة، من خلال الإكثار من الذكر وتلاوة القرآن الكريم والصحبة الصالحة والمواظبة على صلاة الجماعة والحرص على حضور مجالس العلم وغيرها من الوسائل التي تؤثِّر في استقامة القلب وصفائه، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وإنه ليس بخارج من الملةَ، رقم الحديث (٦٧٨٠).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ١٢/٧٨.

# منظومة القيم وتجلياتها في النظام الإسلامي السياسي

أ. د. حسن الخطاف

أستاذ المنطق والثقافة الإسلامية بجامعة قطر ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإنَّ الحديث عن القيم في أيامنا هذه يكتسي أهميّة كبرى نظرا إلى التلاعب الحاصل بها ومحاولات تطويعها لتكون خادمة لمصالح البعض دون البعض، وخاصّة القيم السياسية؛ إذ كثيرا ما نرى الدساتير تتغيرَّ بتغيُّر الحاكم كما حصل في بلدنا بعد وفاة المجرم حافظ الأسد، ليصبح الدستور قميصا لابنه الذي شرّد الشعب السوري سيرا على نهج أبيه. والدساتير من أكثر ما يصنع القيم لتمُّيزها بالثبات عادة.

من هذا المنطلق يأتي هذا المقال مبينا مفهوم القيم وأنواعها كجانب نظري ليتمَّ تطبيقه على أبرز القيم في النظام الإسلامي السياسي.

ومن الواضح أنَّ اختيار النظام الإسلامي السياسي دون غيره؛ لأن السياسة وقيمها هي المؤثر الأكبر في بقية أنظمة الناس الاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

## المبحث الأول: منظومة القيم

### ١. مدخل: مفهوم القيم والتفريق بينها وبين الأخلاق:

تطلق «القيم» بالمعنى الفلسفي على كل ما هو معياري مطلق لا **يرتبط** بزمن أو منفعة، والقيم متنوعة بتنوع موضوعها، فهناك قيم عقلية كالوصول إلى الحقيقة والوضوح والموضوعية في الطرح والبُعد عن المنفعة الشخصية، وهناك قيم اقتصادية كالربح والانتفاع والاستغناء عن الآخرين، ومثل ذلك القيم السياسية كالمنافسة الشريفة في الوصول إلى الحكم، وكذا قيم العدل والاستشارة. وعلى هذا فالقيمة بالمعنى الفلسفي يُقصد بها هنا الأحكام المعيارية الموجِّهة للسلوك الجمعي نحو الخير الذي تراه هذه المجموعة، والذي يربطها نسيج اجتماعي مُحدّد، ومن هذا المنطلق تكتسب القيم ميزة كبرى.

من المنطلق السابق يمكن التمييز بين القيم والأخلاق، فالقيم هي تعبير معياري يبتعد عن السلوك الفردي الذي يوصف بالأخلاق، (والأخلاق جمع خُلق بسكون اللام أو ضمها، وهي

طبيعة الشيء)[1] أو الهيئة الأصلية التي طُبع عليها الإنسان، يقول الزبيدي: (والخُلْق، بالضم، وبضمتين الخُلُق: السجية، وهو ما خلق عليه من الطبع)[2]، ويقول القرطبي عن الأخلاق: (إنها أوصاف الإنسان التي يعامِل بها غيره وهي محمودة أو مذمومة)[3].

فالأخلاق تميل إلى الفرديّة أكثر؛ لأنها تعبير عن سلوك الإنسان وتصرفاته الاختيارية مما يُمدح عليه أو يُذم، فالتصرفات المبنية على الإباحة لا تدخل في منظومة الأخلاق، وإذا قلنا الأخلاق الاجتماعية فهي تماثل مفهوم القيم أو تقترب منه.

### ٢. مصدر القيم:

لكل أمةٍ أو مجتمعٍ مصدر تُستقَى منه القيم، فقد تكون قيما دينية أو بشرية، وما كان دينيا قد يكون صحيحا وقد يكون مُحرَّفا، وما كان بشريا قد يكون متوافقا مع الدين كقيمة إتقان العمل عند الكثير من المؤسسات الغربية بصرف النظر عن الدافع إلى ذلك، وهو متوافق مع ديننا، والفطرة الإنسانية النقية من أعظم مصادر القيم حتى لو كان الإنسان في مجتمعٍ جاهلي، وهذا ما يُفسِّر لنا الكثير من القيم الخيِّرة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قُبيل الإسلام، كقيمة الكرم والمحافظة على العِرْض ونُصْرة المظلوم مع ما رافق هذه القيم من الانحراف في بعض جوانبها. وقد تكون القيم مناقضة للدين كقيمة الحرية العقدية والشخصية الموجودة في التصور الغربي، إذ تتناقض مع الدين في الكثير من تفاصيلها.

> أصول القيم عند المسلمين دينية ثابتة لا تتزحزح

بالنسبة للمسلمين فإن أصول القيم عندنا دينية ثابتة لا تتزحزح، لأن مصدرها القرآن الكريم وما صحَّ عن رسول الله ﷺ وأخذت به الأمة حتى صار بمثابة التوجُّه الجمعي، وتتميز هذه القيم بثباتها ومعياريتها.

### ٣. بيان أهمية منظومة القيم الإسلامية:

#### أ. أهمية القيم الإسلامية على مستوى الأفراد:

تُعدُّ القيم الإسلامية بالنسبة للأفراد موجهة للسلوك وضابطة للأفكار، لأنَّ مصدرها هو الوحي وليس الفكر البشري المتأثر بالمنفعة، فحيثما حلَّ

(١) انظر: الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م، ج٤، ص ٥٣٦.

(٢) محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، مادة: خلق، ج٢٥، ص٢٥٧.

(٣) نقل هذا القول ابن حجر في الفتح، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٧٩، ج١٠،ص٤٥٦.

الإنسان وجدت قيم تجب مراعاتها، ذلك أن هذه القيم مرتبطة بمفهوم الإحسان الذي يشعر فيه المرء أنه يراقب الله تعالى وكأنه يراه، وأقلُّ ذلك أن يشعر الإنسان بمراقبة الله تعالى له، والشعور بمراقبة الله تعالى من أعظم الدوافع لإصلاح الفكر والسلوك، وبالتالي للسير على القيم.

وكم نحن بحاجة اليوم إلى تمثل هذه القيم التي لها أثر كبير على الأفراد في غربتنا التي دفعنا إليها الإجرام المتمثل بعصابة الحكم في سورية، فالمطلوب من السوري اليوم أكثر مما هو مطلوب منه سابقا، وخاصة في البلاد التي تتحكم فيها القيم الأرضية.

التعبير عن قيمنا في الغُربة هو دعوة إلى ديننا، والدعوة إلى الدين ليست مقصورة على علمائه.

**ب. أهمية القيم الإسلامية على مستوى الجماعة:**

القيم الإسلامية تُعبِّر عن روح الأمة وهويتها وتميِّز المجتمع الإسلامي عن غيره، فقيمة الإخاء والتضامن التي عرَفها المجتمع الإسلامي في العصر النبوي من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لا تجد لها مثيلا، وكذلك قيمة العلم التي نبغ فيها علماء المسلمين انطلاقا من كونها قيمة كبرى دعت إليها الشريعة وحضت عليها ورفعت من شأنها.

### ٤.خصوصية منظومة القيم الإسلامية

خصوصية منظومة القيم الإسلامية تكمن في ثباتها وإنسانيتها؛ لأنها منسجمة مع الفطرة والانسجام نابع من مصدرها الذي هو الوحي، ولذا فهي تتميز بالانضباط والوضوح والشمول، كما تتميز بنظرتها الإنسانية بعيدا عن المصالح الأنانية الفردية، فالعدل لا يتجزأ وهو فوق الجميع، والحرية لها ضوابطها بحيث لا تؤدي إلى إيذاء المجتمع، والقوة مطلوبة للأفراد وللمؤسسة العسكرية حماية للأمة، ومثل ذلك قيمة العلم والتضامن الاجتماعي في وجه الشَّر.

## المبحث الثاني: تجليات منظومة القيم في النظام الإسلامي السياسي

هناك قيم كثيرة مرتبطة بالنظام الإسلامي السياسي، ومن أبرز هذه القيم قيمتا الشورى والعدل، وهما من القيم التي تضبط العلاقة بين الحاكم وبين الأمة، وبنزع هاتين القيمتين يصبح الحاكم بعيدا عن المساءلة ويتصرف وكأنَّه هو الأوحد وكأن ما يملكه يملكه منفردًا به كما هو الحال في عائلة الأسد.

والذي ينبغي ألا يفوتنا أنَّ الله تعالى لم يذكر في منظومة النظام الإسلامي السياسي في القرآن الكريم غير هاتين القيمتين، ويتعين علينا ملاحظة هذا عند النّظر الفقهي المتعلق بواجبات الحاكم وخرمه لهذه الواجبات، فلولا أهمية هاتين القيمتين لما ذُكرتا في القرآن الكريم، ولَمَا جاء التأكيد عليهما من خلال تصرفات النبي عليه الصلاة والسلام، فهاتان القيمتان تمثلان

أبرز المقاصد الشرعية المتعلقة بالحاكم.

## أولاً: قيمة الشورى

الشورى قيمة كبرى، وليس للحاكم الاستبداد بالرأي فهو وكيل عن الأمة في تنفيذ شرع الله تعالى، ولا يصدر عن رأي نفسه، ومن هنا يجب عليه مشاورة أهل الحل والعقد وأعيان الأمة في القضايا المصيرية، قال الله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ومن الملاحظ أنَّ الله تعالى يخاطب رسوله ﷺ مع أنَّه رسولٌ مُسدَّد من قِبَل الوحي، وقال الله تعالى مبيِّنا وصف المسلمين الذين اتبعوا النبي: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقد مارس النبي ﷺ هذه القيمة في حياته، والنصوص في هذا كثيرة وهي معلومة، لكنَّ الذي يعنينا في هذه القيمة أمران:

الأول: ما لو كان الحاكم لا يشاور من هم أهل للمشورة بحسب مضمون المشورة.

الثاني: هل المشورة ملزمة للحاكم أم يبقى له الاختيار فيها.

ومن الملاحظ أنّ هاتين المسألتين تُبعدان الحاكم عن الاستئثار بالرأي، مع أنَّ الثانية أخفُّ من الأولى، والذي أراه في هذا أنَّ الحاكم الذي لا يستشير تُنزع منه صفة الحكم ولا يصلح أنْ يكون حاكمًا، ولا فرق في ذلك بين أنْ لا يستشير أصلا، وبين ما لو وَضع اختيارا منه ـ من غير كفاءة ـ مجموعة من الناس كواجهة للمشورة، والمقصود بالنزع هنا أنّه ليس مؤهلا للحكم هذا من حيث التأسيس النّظري، وبقاؤه على سُدّة الحكم نوع من المغالبة في الحكم، أي أنَّه فاقدٌ للمواصفات التي تؤهله للحكم، ولا يُعرف نزوعه نحو التفرد والبُعْد عن الاستشارة إلا من خلال الوقائع، فإذا انفرد بوقائع خطيرة متصلة بكيان الأمة، كالمصالحة مع عدوٍ لا يرى فيها أهل الاختصاص مصلحة للأمة، فإنَّه يُحكم على تصرفاته بالتفرد والاستئثار.

أما فيما يتصل بالمسألة الثانية فإنّ القيمة تكون شبه معدومة إنْ قلنا بأنها ليست ملزمة، وبعيدا عن الخلاف الفقهي في هذه المسألة فإنه ينبغي مقاصديًّا أنْ تكون الشورى ملزمة في القضايا التي تمسُّ الأمة وكيانها؛ لأنَّ عواقب التصرف المنفرد في مثل هذه القضايا قد تأتي على الأمة جميعها. وهذه المسألة تحتاج فقها إلى درْسٍ أكثر لتحديد ما يمكن أنْ يتصرف فيه الحاكم من شؤون الأمة وما لا يمكن أنْ يتصرف فيه، كما لا أرى فقها ما يمنع تحديد عدد الموافقين أو المخالفين من أصحاب الاختصاص وتُعطى صلاحية للحاكم في اتّخاذ القرار في ضوء ذلك.

## ثانيًا: قيمة العدل في الحكم:

الحُكم في الإسلام عبارة عن تكليف من جهتين: من جهة الحاكم فيتقدم من يرى في نفسه كفاءة، ومن جهة الأشخاص الذين يختارون الحاكم، فهم مكلفون في اختيار من يرونه مناسبا لحماية دينهم ودنياهم، وعليه فالحاكم مؤتمن على

عقيدة الأمة وأخلاقها واقتصادها ومكلف بالدفاع عنها، وهو يمثل الأمة ولا يُمثل الله تعالى، فإنْ خالف وانحرف عن الشريعة وقيمها التي هي المقياس لعدالته واستمراره وقع في الإثم، قال ﷺ: «ما من أمير يلي أمر المسلمين، ثم لا يجهد لهم، وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنة»(١).

العدل بين الرعية من أكبر القيم السياسية في الإسلام ومن أعظم الواجبات على الحاكم، فإقامة العدل سبب لبقاء الأمة والظلم سبب في خرابها، ونظرا لهذه الأهمية جعل النبي ﷺ الحاكم العادل ممن يظله الله تحت ظل عرشه يوم القيامة(٢)، فإذا لم يقم الحاكم بذلك فقد غشَّ الرعية، يقول ﷺ: «مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ المُسْلِمِينَ، فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»(٣).

وعدم العدل من الحاكم يستتبعه عدم العدل من الولاة الذين هم تحت إمرته، وكذا عدم العدل من القضاة وهذا يؤدي إلى خراب الأمة.

والذي ينبغي ألا يفوتنا أنّ القرآن الكريم نصَّ على هذه القيمة في مواطن كثيرة، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] وقوله سبحانه وتعالى ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ [الشورى: ١٥]، فهي جزء من وظائف النبي عليه الصلاة والسلام وجزء من وظائف الأنبياء ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

ومما يتحتم التذكير به أنَّ الوجه المقابل لغياب العدالة هو الظلم، والظلم بتعريف الإمام الغزالي: (هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه)(٤).

وإذا وقع الظلم وقع الخراب والدمار وهو السبب الرئيس في سقوط الحضارات، ولعله السبب الأبرز في إهلاك الأمم السابقة:

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾ [الكهف: ٥٩]، ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ [يونس: ١٣]، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾ [الأنعام: ٤٥]، ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم: ٢٢٩، مجموعة من المحققين، الناشر: دار الجيل ـ بيروت.

(٢) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابا في الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها، قال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه» صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش، رقم: ٦٨٠٦.

(٣) رواه البخاري [باب من استرعى رعية فلم ينصح] رقم (٧١٥١).

(٤) الغزالي، قواعد العقائد، تحقيق: موسى محمد علي، الناشر: عالم الكتب ـ لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص٢٠٤.

يقول فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦): (عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم، ويقال في الأثر المُلك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم. وهذا تأويل أهل السنة لهذه الآية، قالوا: والدليل عليه أن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال لِما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق)[١].

وليس بالضرورة أنْ يكون العذاب استئصالا كما حدث لقوم عاد وثمود... فقد: (يجيء صاعقة أو غرقًا أو فيضانًا أو ريحًا أو خسفًا أو قحطًا أو مجاعة وارتفاعًا في الأسعار أو أمراضًا وأوجاعًا أو ظلمًا وجورًا أو فتنا واختلافًا بين الناس... أو ضَعفًا في القلوب ووهنا في النفوس كما هو حالة الأمة الإسلامية)[٢].

فإذا كانت قيمة العدالة بهذه المنزلة فهي كلية من كليات النظام السياسي التي لا ينبغي أنْ تُخترق بأي حالٍ من الأحوال، وأكثر ما تُخترق من جهة القرابة وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى ذلك عندما سرقت المرأة المخزومية وأرسلوا له شفيعا ليكلِّم النبي في شأنها، وهو أسامة بن زيد فقال له ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله» ثم قام خطيبًا في الناس وقال: «يا أيها الناس، إنما ضل من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ، سرقت لقطع محمد يدها»[٣].

معاذ الله أنْ تسرق فاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا لكن النبي عليه الصلاة والسلام أراد أنْ يعبِّر عن أهمية هذه القيمة، ويؤكد على أنَّ اختراقها سبب في تدمير المجتمعات.

وإذا كانت هذه القيمة بهذا الشكل فيتعين إعادة النّظر في فهم الموقف من السلطان الجائر وطبيعة الحكم الذي يقوم به، وعدم المبالغة في الخوف من الفتنة حتى صار الكثير من فقهاء السلطان يجعلون التعبير عن الرأي نوعا من الخروج على السلطان، وهو فقه أبعد ما يكون عن مقاصد الشرع وروحه، بل صار الأمر أن تجد من يروج للسلطان مهما ظلم وجار ليدافع عن سلوكه، ويرى عدم إظهار خطئه حتى لو كان يمارس الزنا ويشرب الخمر، وقد رأينا بعضا من هؤلاء كيف تربّوا على موائد خليفة حفتر ليدافعوا عنه[٤].

(١) فخر الدين الرازي، تفسير الرازي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الثالثة ـ ١٤٢٠ هـ، ج١٨، ص ٤١٠.

(٢) محمد هيشور، سنن القرآن الكريم في قيام الحضارات وسقوطها، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الحدود، كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان رقم: ٦٧٨٨.

(٤) انظر في مدح الخليفة حفتر السلفيين، https://www.youtube.com/watch?v=O2n_yU458lo&ab_channel=%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D9%87%D8%AC%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%84%D9%81%D9%8A

ولا ينبغي أنْ ننظر إلى قضية عدم العدل على أنّها مسألة جزئية فليست القضية هي الجور بحقِّ واحد من الرعية ـ مع خطورتها ـ وإنما هي قضية أوسع من ذلك لاتصالها المباشر بالتوزيع العادل وتنصيب أصحاب الكفاءة والمحافظة على قيم المجتمع وإبعاد الفجَّار والفسقة والأخذ على أيديهم وعدم تسليم الدولة لأعداء الأمة، فهذا كله جزء من عدم القيام بالعدل.

وإذا كان الأمر كذلك تكون قيمة العدالة قيمة كلية لا تقبل النسخ ولا التخصيص أو التقييد وما جاء من أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام تنهى عن الخروج عن الحاكم الظالم ينبغي أن تُفهَم في ضوء الكلية السابقة، فمن فقد شرط العدالة ليست له ولاية صحيحة بل هي ولاية اضطرار وهي أقرب ما تكون إلى حالة من يضطر لأكل الميتة، يقول حجة الإسلام الغزالي عند حديثه عن الشروط التي ينبغي أن تتوافر في الحاكم: (فإن قيل فإن تسامحتم بخصلة العلم لزمكم التسامح بخصلة العدالة وغير ذلك من الخصال، قلنا: ليست هذه مسامحة عن الاختيار ولكن الضرورات تبيح المحظورات)[1].

وفرق كبير بين أنْ تكون ولاية الحاكم بمثابة ولاية من لا يجد إلا لحم الميتة، وبين أنْ يصبح لحم الميتة ـ الذي أبيح استثناء ـ هو الأصل ويغدو ذا طعم طيب ولذيذ في الأفواه.

## الخاتمة

ظهر لنا مما سبق أنَّ القيم هي الموجِّه الأكبر للمجتمعات ومن هذا المنطلق تكتسي أهمية واحتراما، وأبرز هذه القيم في منظومتنا الإسلامية السياسية قيمتا الشورى والعدل، فينبغي المحافظة عليهما وعدم هدرهما، فهما لا تقبلان نسخا ولا تخصيصًا ولا تقييدًا.

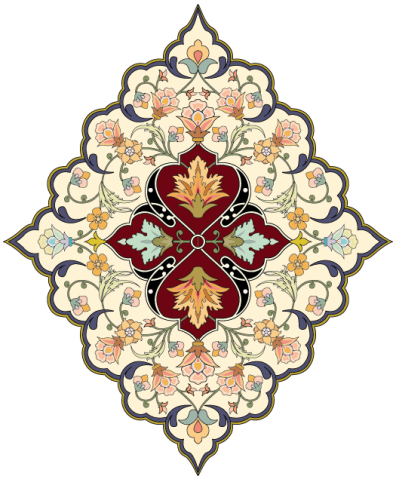

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤ م،ص١٣٠.

# مع الطنطاوي (في سبيل الإصلاح).. لنكون جميعًا مشاريع إصلاح

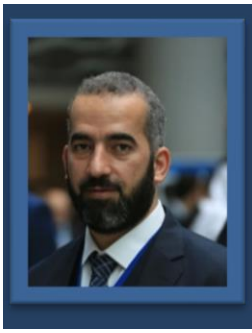

د. ياسين عبد الله جمّول

دكتوراه في اللغة العربية، مدير تنفيذي في منظمة غصن زيتون للتعليم والثقافة

## مقدمة

حينما تموج الحياةُ بالفساد والفتن، وتزكمُ الأنوفَ روائحُ الدماء، وتعطّل الحواسَّ مشاهدُ الدمار والتشرّد يعجز كثيرون تحت هذا الركام من الآلام عن النهوض، كبارًا كانوا أو صغارًا. ويزيد الأمرُ صعوبة إن كانت الأحداث متداخلة في مفاصل التاريخ؛ فحينها تزلّ أقدامٌ ويَتِيهُ أعلامٌ ذوو أحلام؛ وقد يبصّر الله بالحقّ مَن يكون أصغرَ منهم لفضلِ صلاحٍ عنده ومزيدِ توفيقٍ وتسديدٍ له من الله.

ولعل هذا ما ينطبق على رسائل الإصلاح التي بدأها «علي الطنطاوي» قبل أن يُتمّ العشرين من عمره. ومعرفة سياق رسائل الإصلاح التاريخي مهمّ لفهمها على وجهها من جهة، ولمعرفة قربها منا اليوم وأهميتها لنا؛ فأهل الشام الذين أخذتهم فرحة نصر تمثيلي للخروج من عباءة الحكم العثماني لم يلبث فجر دولتهم بالاقتراب حتى أفاقوا في اليوم التالي على احتلالٍ فرنسيٍّ، فلم يصبروا قليلًا حتى انتفضوا ثائرين عليه إلى أن طردوه بعد زمن طويل عن أرض الشام.

ولكنّ عقودًا من الزمن تحت سلطة الاحتلال لا يمكن اختصارها في سطرَين، فقد هزَّت بلاد الشام فاضطربت وارتجّت أطرافها كلها؛ لأن الاحتلالَ حصل معه اختلالٌ في الفكر والسياسة وحياة الناس، إذ التفتَ كثيرون نحو فرنسا يرونها حاملةَ حضارةٍ ونموذجَ نجاحٍ، فتعقلوا بسراب التحضُّر تحت عباءة الانتداب، وآخرون عادوا لسلاحهم ـ وكان قريبًا منهم ـ فثاروا يُقارعون المحتلّ ومَن مشَوا في ركابه.

ومع انشغال «النُّخَب» بقتال المحتلّ أو اللَّهث وراءَه تطحنُ الناسَ أدواءٌ وأدواء، ليمضي خيِّرون في علاج ما يظهر لهم من أعراضٍ على الأبدان، ويدقّق المُصلِحون لينهضوا بعلاج ما يخفى تحت ذلك في العقول والأذهان؛ ولا يدرك ذلك إلا الموفَّق المسدَّد من المصلِحين.

## سبيل الإصلاح في الحياة الاجتماعية:

إن مَن يَعِشْ مع الناس فيرى ويسمع يدركْ خطورة ما يَسرِي فيهم من الأمراض، فتكون الحياة الاجتماعية ميدانَهُ للإصلاح؛ لأنها القاعدة العريضة التي ينهض عليها المجتمع، وكلُّ إصلاح

فوقَها لم يُؤسَّس على صلاح فيها يختلّ؛ لذا شغلت الحياة الاجتماعية الحيّز الأكبر في رسائل الإصلاح عند الطنطاوي.

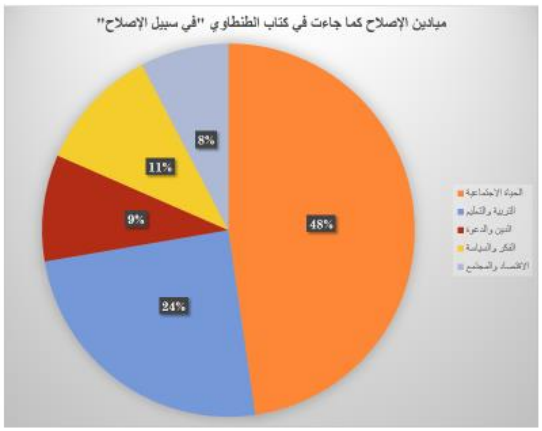


فدفعَ بمِبضَع الجرَّاح لديه في قضايا: الأخلاق الاجتماعية، ومشاكل الأزواج، وغلاء المهور، وارتياد المقاهي، والنفاق وضياع الأمانة، وآداب الضيافة والتزاوُر، والتبذير في الهدايا والأفراح، والاختلاط وتشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، والتبرّج وأثر التغريب في نشر السفور، وضرورة مواجهة الباطل كيلا يُغلب الحق لجبن أهل الحق عن المواجهة وميلهم إلى العزلة.

سبيل الإصلاح في الحياة الاجتماعية من كتاب الطنطاوي "في سبيل الإصلاح"

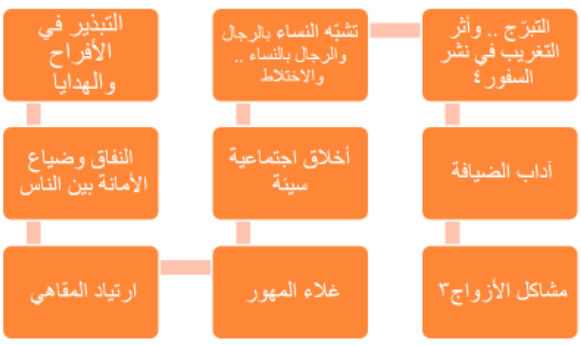


يقول الطنطاوي: (وتوارَى أنصار الفضيلة من وجه هذه العاصفة الفاجرة الهوجاء، وهم جمهرة أهل الشام وعلماؤهم وأفاضلهم وعقلاؤهم، وحسِب أولئك أن الظفر تمّ لهم، وأن أهل الدِّين قد انكسروا، فكشفوا القناع وانطلقوا يسرحون وحدهم في الساحة ويمرحون... وكانت النتيجة أن انحطم السدّ، فطغَى سيل الرذيلة وعمّ، وامتدّ في هاتَين السنتَين أضعاف ما امتد أيام الفرنسيين الذين هم أفسق الناس)[١][١٩٤٦م].

وقال في العادات الاجتماعية السيئة وما يكون فيها من هدر وتبذير: (وُلد لي مولود، فأُهدي إلى أمّه أكثر من عشرين علبة (شكلاطة) من هذه العُلب التي جدّت في دمشق وصارت (موضة) الوقت، عادت حطبًا انتهى إلى المدفأة؛ فاحترقت ٤٠٠ ليرة كان يمكن أن يُشترى بها من خبز البلدية عشرون ألف رغيف! ومن الثياب النسائية المستعملة (التي توزعها وزارة التموين) ٤٠٠ ثوب! ويمكن أن يتزوج بها من الفقراء أربعة رجال! ففكروا كم ننفق من الأموال في أشياء لا يأتي منها خَير، وما في تركها ضَير؛ ونحن نشكو الفقر والمرض والجهل! **فإلى متى نضيع أموالًا نحن اليومَ أحوج إليها من كل يوم مضى؛ لأننا في عهد تجديد وبنيان، ولأننا في أول طريق الاستقلال؟!**)[٢].

(١) كتاب في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، دار المنارة، جدة، ط٦ ٢٠٠٦: ص١٣٢.

(٢) في سبيل الإصلاح: ص٣٩.

ويقول عن الأخلاق في المجتمع: (نحن اليوم في مطلع نهضة، ولكل نهضة جسم وروح؛ فأما الجسم فهذه السياسة وما يتصل بها، وأما الروح فهي الأخلاق والعقائد والمـثُل العليا؛ فإذا لم تعتنِ به الحكومات والجمعيات والمدارس؛ كانت نهضتنا جسمًا بلا روح: وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت)[1].

> أركـــــــان العملية التعليمية (الطالب والمعلم والمنهاج والمدرسة)

## سبيل الإصلاح في التربية والتعليم:

ولا يخفّف من أمراض المجتمع شيء كما تفعل التربية والتعليم، لذا جاءت تاليةً في النصيب من إصلاح الطنطاوي؛ فتناول أركان العملية التعليمية (الطالب والمعلم والمنهاج والمدرسة)، وما أرشدَ إليه نجدنا اليوم بأمسّ الحاجة إليه؛ لأنه تكلّم على فساد الحياة التعليمية وخطورة المناهج الموضوعة، وعلى ضرورة تطوير التعليم، وأهمية الأدب، وأكّد ضرورةَ تحرير المسائل وتدوينها، وأهميةَ عدم التمييز بين الناس في الخدمات التعليمية، وأهمية نشر التعليم في القرى المحرومة، مع محاربة الدعوات للعامية.

سبيل الإصلاح في التربية والتعليم من كتاب الطنطاوي «في سبيل الإصلاح»

يقول الطنطاوي عن بعض الفساد في الحياة التعليمية: (**ليس في العربية صعوبة، ولا في كتابتها وعلومها تعسير؛ هذه ضلالة يجب أن ينتهي حديثها**، وألا نعود إلى إضاعة الوقت وإفساد النشء في الكلام فيها. ويجب أن نحببها إلى الطلاب، ونرغّبهم في مطالعة كتبها؛ حتى يألفوها، ويسهل عليهم فهمها. فالحكاية ليست حكاية كتابة تُسهَّل، ولا قواعد تُيسَّر، ولا أغراض خبيثة تُحقق من وراء هذه السُّتُر اللمّاعة؛ ولكنها مشكلة المعلم أولًا، والتلميذ ثانيًا؛ فهاتوا المعلم القوي في علوم اللغة صاحب الاطلاع فيها، وهذا المعلم لا يُوزن بالشهادات. وأما التلميذ فيجب أن نحبّب إليه المطالعة، ونعرّفه قيمة العلم ونُذيقه لذّته)[2].

ويقول عن وجوب النفرة إلى القرى والمناطق المحرومة للتعليم فيها: (أيبقى هؤلاء الناس جاهلين يعيشون بمعزل عن الحياة، يترفع الشاب المتعلم عن الجلوس إليهم ومصافحتهم، وإذا بعثوه ليكون معلمًا لهم أو موظفًا فيهم أقام الأرض وأقعدها ولم يدع وسيلة للتخلص من هذا (النفي)

(١) في سبيل الإصلاح: ص١٦٩.

(٢) في سبيل الإصلاح: ص٥٠.

إلا توسل بها! **إن الشاب النافع هو الذي يخدم ويعمل ويدع أثرًا صالحًا، وأما صاحب الجعجعة فلا ينفع أحدًا**... إن ميدان القرية أحوج الميادين إلى هم الشباب ومعرفتهم ونشاطهم)[١].

## سبيل الإصلاح في الدعوة والإرشاد:

ولأنه ليس تعليمًا مجردًا، بل تعضده وتنهض به التربية حضرت في رسائل الإصلاح مع الدعوة والإرشاد؛ فأول ذلك بيان ضرورة التأصيل، لأن الإصلاح إن لم يكن مبنيًا على الأصول الصحيحة جاء إفسادًا؛ وكم من تحرير انقلب إلى تدمير! وصاحَ بالدعاة للتقرب من الشباب والنصح لهم، وهمسَ في آذانهم بحبّ وصدق وكان في مثل سنّهم ويعرف حالهم من نفسه؛ وهذا أبلغ ما يكون من الخطاب، فلا يأتي الصوت من بعيد أو غريب، فيُرمى المنادِي بالبُعد عن الواقع وجهل تفاصيله وما يناسبه.

سبيل الإصلاح في الدعوة والإرشاد من كتاب الطنطاوي «في سبيل الإصلاح»

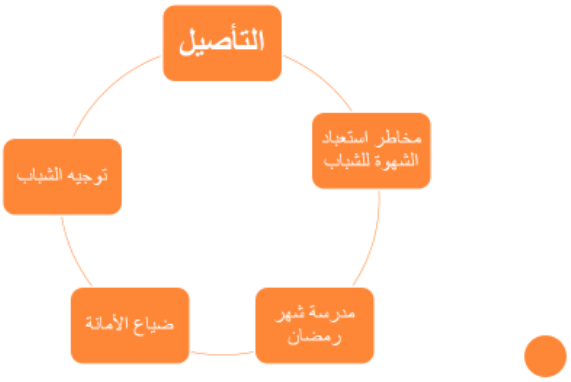


يقول الطنطاوي: (**إن هذا العلم دين؛ فعلينا** أن ننظر عمن نأخذ ديننا، وألا نأخذ العلم إلا عن رجل نثق بدينه كما نثق بعلمه، ونطمئن إلى إيمانه كما نطمئن إلى منطقه، فإن لم يكن إلا العلم والمنطق لم ينفعاه عند الله شيئًا)[٢].

ويقول: (إنَّ ما وصلْنا إليه فيه الخبيث والطيب؛ فكيف نميز الخبيث من الطيب؟ وإن ذلك كله يتغير ويتبدل؟ الجوابُ واضحٌ بيّنٌ لمن أعمل فيه فكره وكان فكره مجردًا عن الهوى، **فالمقياس هو شرع الله**... إن سبيلَ الإصلاح بيّنٌ ظاهرٌ إن شئنا سلوكَه؛ فَلْيتفقِ الدعاة إليه على منهج واحد، نرتب فيه المقاصد التي ندعو إليها، نقدّم الأهمّ على المهمّ، لا ندعُ الأصول ونتنازعُ في الفروع. إنَّ الدعاة منا كُثُر، والمسلمون حاضرون ليستجيبوا لهؤلاء الدعاة؛ فإن لبثوا على خلافهم وتنازعهم وتضارُب مناهجهم كان عليهم إثمُ أنفسهم، وإثمُ هذه الأمة التي تمشي وراءهم وتقتدي بهم)[٣].

ويقول للشباب[٤]: (إن الله الذي وضع الشهوة في النفوس جعل دواءها الزواج، فإذا تعذّر الزواج فهناك طرق للوقاية من الفاحشة: هناك الدِّين، والشرف، والصحة والرياضة. وأنتم يا إخوتي ـ وأنا شابّ مثلكم ـ أنصح لكم أن تصرفوا ميولكم نحو جهة عُلوية؛ وإن الشاب إذا دأبَ على المطالعة والبحث، ورغبَ في التفوق أو استغرقَ في تجارة أو

(١) في سبيل الإصلاح: ص٩٤.

(٢) في سبيل الإصلاح: ص٣٦.

(٣) في سبيل الإصلاح: مقدمة الطبعة الثانية ص١٤و١٧.

(٤) في سبيل الإصلاح: ص١٥٥.

صناعة لا يجد في نفسه بقية للشهوة؛ فإنما تستعبد الشهوة فارغ الرأس واليد والوقت: إن الشباب والفراغ والجِدَة.. مفسدة للمرء أي مفسدَة!).

## سبيل الإصلاح في الاقتصاد والمجتمع:

وتأكيدًا لعيشه وسط الناس وإحساسه بأوجاعهم وجدنا مساحة من صيحات الإصلاح تعالج جوانب الاقتصاد والمجتمع، مما لا يخرج كذلك عن واقعنا الذي نعيشه اليوم؛ إذ فضح الطنطاوي تجّار الحروب الذي يغتنون على حساب آلام الناس وجوعهم، وشدّد النكير على مَن يأكلون أجور العمّال وتعبهم وطالبَهم برفع الأجور وتحسين ظروف العمل، وانتقد التوظيف الخاطئ وما يكون فيه من هدرٍ لطاقات مميزة وإساءةٍ للوظائف وللمجتمع، مع عيبه الإسراف والتبذير والسفه وقلة التدبير.

سبيل الإصلاح في الاقتصاد والمجتمع من كتاب الطنطاوي «في سبيل الإصلاح»

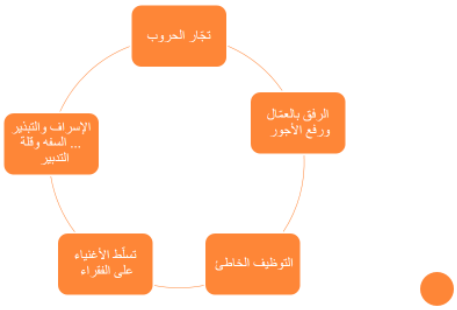


يقول الطنطاوي في بعض الواجب على أهل العلم والفضل في الحرب: (وإنّ من أوجب ما يجب علينا في هذه الحرب أن نُنشئ جمعياتٍ موثوقًا برجالها بأمانتهم ودينهم، تكون في كل حيّ كالوسيط بين الغني المحسن والفقير المحتاج. إن من أهم ما ينبغي لهذه الجمعيات أن تصنعه هو أن تختار للإحسان أسلوبًا يهون به العطاء على المعطي). ويحكي تجربته في مشروع خيريّ شارك فيه: «**مشروع الرغيف**: حين كنتُ قاضيًا في القلمون فرضْنَا على أهل كل بيت من القادرين رغيفًا واحدًا في اليوم، ووكلنا مَن يجمعه، ووزعنا ما جمعناه على المحتاجين، وتركنا مَن هم بين ذلك فلم نأخذ منهم ولم نعطهم، وهذا الرغيف الذي لا يصعب إعطاؤه على أحد ولا تشعر به الأسرة أحيا الله به أهل القلمون؛ وهم أكثر من سبعين ألفًا في سنة القحط والضيق. وما ذكرتُ ذلك لأفخر به، ولا لأنه الأسلوب البديع الذي لا نظير له؛ بل لأمثّل به على ما أريد، **والعبرة بالأعمال لا بالأقوال**»[1].

ويقول في تجّار الحروب؛ وهم هم في كل زمان وفي كل حرب[2]: (وما هذا القصر لملك ولا أمير، ولكنه لتاجرٍ من هؤلاء التجّار الذي يحيَون في أيام الحروب التي يموت فيها الناس، ويغنَون حين يفتقرون؛ فنحن نرجو الرُّخْص وهم يتمنَّون الغلاء، ونحبّ أن تنتهي الحرب وهم يحبّون أن تدوم. على أنني لا أعمّم القول؛ وإن في الموسِرين لمحسِنين، وفي التجّار لمنصِفين).

## سبيل الإصلاح في الفكر والسياسة:

ومع انهماك الطنطاوي في الإصلاح الاجتماعي والتربوي لم يكن ليهمل السياسة

(١) في سبيل الإصلاح: ص٨٠.
(٢) في سبيل الإصلاح: ص٧٥.

والفكر؛ فإنما هي حلقات يأخذ بعضها برقاب بعض في حياة الناس وما يسري فيها من أمراض، فعرضَ للإصلاح فيهما بمقالات في بيان الفارق بين الدعوات القومية والدعوة الإسلامية، وحقيقة دعوى النهضة النسائية ومساواة الرجل بالمرأة، وفضح أنواع الاحتلال وأن الاحتلال الاقتصادي أشد وأخطر من الاحتلال العسكري.

سبيل الإصلاح في الفكر والسياسة من كتاب الطنطاوي «في سبيل الإصلاح»

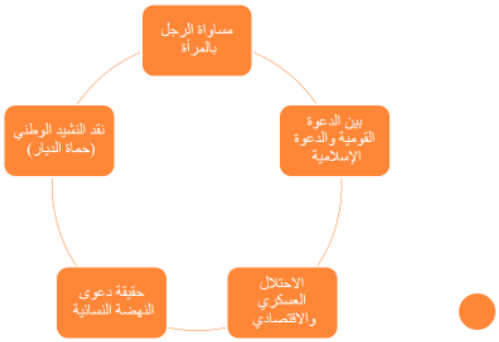


قال الطنطاوي[1]: (اعلموا أن الاستقلال الحقيقي لا يكون إلا عندما يلتفت (المصريّ)[2] فلا يرى حوله شركة أجنبية، ولا مدرسة أجنبية، ولا متجرًا لأجنبي، ولا عقارًا يملكه أجنبي، وتكون كل خيرات (مصر) لأبناء (مصر)؛ هذا هو الاستقلال؛ فعلى كل (مصريّ) أن يعمل له ما يستطيع. هذا احتلال شرّ من احتلال الجيوش، والخلاص منه أصعب وأشقّ؛ لأنه لا يكون بالرصاص والبارود، ولا يكون بالمظاهرات والثورات، بل يكون بإعلان النفير العام: في الكتّاب أولًا وتجنيد القوى الأدبية كلها للعمل على إعلاء همّة الشعب، وأن نردّ عليه عزّته وكبرياءه. ثم نعمل على أن ندفعه إلى اقتحام المخاطر، ثم نعلّمه بغض الأجنبي حتى يكون له دينًا، ثم لنُفهم هذا الشعب أن الأوربي يضحك علينا).

ومن أهم ما عالجه الطنطاوي في رسائله الإصلاحية على الصعيد الفكري والسياسي «القومية والإسلامية» في رسالتَين طويلتَين، وكان مما قال: «الخلاصة أن العربية والإسلامية كدائرتَين: صغيرة وكبيرة، إحداهما وسط الأخرى إلا هلالًا دقيقًا، هو موضع الاختلاف بينهما، أي: أن بينهما باصطلاح أهل المنطق عمومًا وخصوصًا عامًا إلا من وجه واحد، هو مسألة المليونين من العرب غير المسلمين، والخمسمئة مليون من المسلمين غير العرب»[3]؛ أيهما أحق بأن نتولاه؟).

وفي نقاشه دعاة القومية يقول: (إننا نحبّ العرب لأنهم قوم محمّد ﷺ، واللسان العربي لأنه لسان القرآن... ولكنّا لا ندعو إلى عصبية، ولا نعدل بأخوّة الإسلام أخوّة. ونحن لا ننكر إخواننا في الوطن واللسان من النصارى؛ ولكنّا نسألهم ألّا يطلبوا منا وهم مليونان أن نقطع لأجلهم إخوّتنا بخمسمئة مليون مسلم غير عربي يحبّوننا ونحبّهم، ويشاركوننا عقائدنا وعبادتنا).

(١) في سبيل الإصلاح: ص٧٠و٧٢.

(٢) جاء كلام الطنطاوي رحمه الله في رسالة عن حادثة وقعت في مصر تمثّل الاحتلال الاقتصادي فيها؛ والكلام عام يصحّ في كل البلاد.

(٣) الأعداد التي يذكرها الطنطاوي كانت وقت كتابته رسائله في الإصلاح، ورسالته المنقول عنها كلامه هذا مؤرخة في الكتاب بسنة ١٩٤٦م.

## منهج الطنطاوي في سبيل الإصلاح[1]:

ولعل ما يكشف سرّ القَبول الذي كان لرسائل الطنطاوي في سبيل الإصلاح منهجه فيها؛ فقد كان في مقالاته الإصلاحية كلها ينطلق من قصة واقعية يعرض فيها لمشكلة يعيشها الناس، ولا يقف عند النقد والتجريح والهدم؛ بل يطرح رؤيته الإصلاحية لمعالجة المشكلة، مع نثره رسائل إصلاحية من حولها، وعرضه صورَ نجاحٍ فيها من الشرق والغرب تؤكد قابلية رؤيته للحياة والتطبيق.

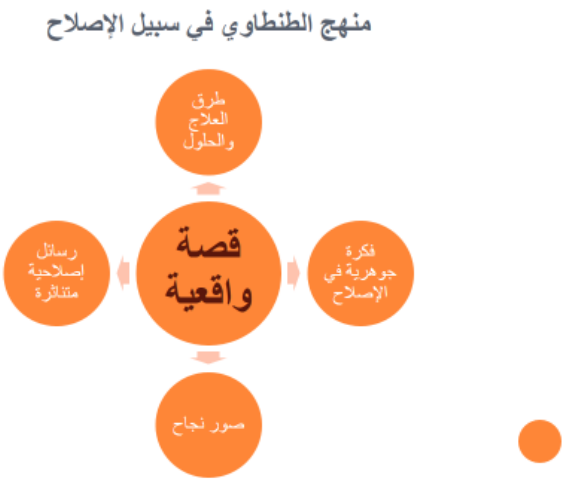


وإنما جاءت وفق هذا المنهج عن وعي وقصد؛ ففي رسالة له عن المشاكل الزوجية يشرح منهجه فيما يكتب، وكأنه يحكي منهجه في كتابه كله، يقول: «لقد كُتب فيها وكُتب.. فلم يُغنِ المكتوب شيئًا؛ ذلك أن المشكلة تحتاج إلى حلّ عملي يقوم به الآباء، لا إلى نظريات وفلسفات يُدلي بها الكتّاب والأدباء، من أجل ذلك نحوت في هذا البحث نحو العمل: **فلم أتعمّق ولم أتفلسف! ومن أجل ذلك ضربت من الواقع أمثلة، وأخذت من الحياة شواهد وصورًا**»[2].

وهذا منهج أصيل في الإصلاح ينطلق في معالجته من حياة الناس بواقعية دون تعقيد، ولا يهبط عليه بنظريات وفلسفات بعيدة عنهم.

## الإصلاح في الشام بين الأمس واليوم:

ما مضى من قراءة «في سبيل الإصلاح» إنما كان الهدفُ منها نصبَ علاماتٍ في طريق الإصلاح الذي تنتظره منّا ساحة الشام اليوم؛ فقد صاحَ بهذه الدعوات الإصلاحية أعلامٌ دفعوا من حرياتهم ودمائهم أغلى الأثمان، والتدقيق فيما عُرض يقرّب المسافات بين أمس واليوم في بلدنا.

فالجبهات السياسية والعسكرية والإنسانية تستهلك أكثر الموارد البشرية والمادية حتى اليوم في ثورتنا، على نحوٍ قريبٍ مما كان أيام نادَى الطنطاوي بالإصلاح؛ فليكن أولُ ما يسأل المصلحون أنفسهم: كم تأخذ حياة الناس الاجتماعية من أوقاتهم واهتماماتهم؟ هل يمضي الأعلام جميعًا وراء مشاكل السياسة والعسكر تاركين الناس يغرقون في مشاكل اجتماعية لو صُرفت نحوها كتائب من الباحثين والمُرشدين اليومَ ما أدركت الظواهر الغريبة التي سرت في ظلام الموت والدمار

(١) هذه كلمات موجزة في منهج الطنطاوي الإصلاحي الأصيل كما ظهر في كتابه «في سبيل الإصلاح»؛ على أن دراسة تفصيلية في منهجه تصلح أن تُفرد برسالة أكاديمية أو ورقة بحثية.

(٢) في سبيل الإصلاح: ص٢٥٣.

بين السوريين؛ لا يختلف في ذلك مَن هم في الداخل عمن هم في دول اللجوء والشتات. أم أنّ أصحاب الفضيلة ينسحبون مجددًا أمام العاصفة الهوجاء من الفتن والمشاكل، ليعود سيل الباطل العرمرم يكتسح حياتنا ويخرّب مجتمعنا؟!

قد يخلو مجتمعنا من عادات سيئة كالتي ضربها الطنطاوي أمثالًا، لكنه ينضح بعادات لا تقلّ سوءًا وخطرًا عن تلك، أفرزتها سنوات الحرب؛ فالحرب في مسيرة الأمم مرض، والمرض كلما طال زادت آثاره الجانبية وأخطاره، ولن يسعد بسريان المرض في المجتمع السوري إلا أعداؤه، حتى صاروا يشبّهون الشام بالرجل المريض يلزمه مَن يأخذ بيده![1].

فإن أردنا لثورتنا أن تنهض بروحٍ وجسدٍ كما عبّر الطنطاوي فنحن بحاجة لمراجعة دقيقة لأخلاقنا الاجتماعية، وإصلاح ما دخلها من الخلل والفساد.

ولعل من التوافق الحسن في الأهمية أن جاء ملف التعليم ثانيًا فيما شغل من رسائل الإصلاح، والحال اليوم كمثل ما كان أو هو أشد خطورة؛ فالمنظمات الدولية منذ سنوات تتحدث عن أكثر من مليونَي طفل سوري محروم من التعليم، وأن نسبة التعليم بين الأطفال السوريين في دول الجوار تتفاوت بين ٢٥٪ حتى ٦٠٪ في أحسن الأحوال[2]، ما يعني حرمان مئات الآلاف من الأطفال في كل بلد منها من التعليم، فضلًا عن مئات الآلاف في الداخل السوري حُرموا لسنوات كذلك من الخدمات التعليمية.

فالإصلاح في قطاع التعليم من أعظم الواجبات اليوم على السوريين كي تحقق ثورة الكرامة أهدافها؛ فكل الفاعلين على الأرض السورية اليوم يتنافسون في السيطرة على التعليم، لأنهم يدركون أنه بالتعليم تُصنع الهوية ويُعاد تشكيل الوعي[3].

فمئات المخيمات اليوم تنتشر في الشمال دون مدارس أو مراكز تعليمية، وآلاف من الأطفال يعجزون عن ثمن القرطاسية وتكاليف الانتقال إلى المدارس، مع اختلافٍ في المرجعيات والمناهج والإدارة التعليمية بين المعنيّين في قطاع التعليم؛

(١) جاء في مذكرات الجنرال الإيراني المقتول في حلب حسين همداني على لسان مرشد الثورة الإيرانية «خامنئي» وهو يأمر سليماني بالعودة إلى سورية: «سورية بلد مريض، ولكنه لا يعرف أنه مريض، وهذا المرض يجب شرحه وتفهيمه للساسة ورجال الدولة في سورية، وإذا رفض هذا المريض الذهاب إلى الطبيب فيجب أن تأخذوه، وهو لن يخبر الطبيب بمرضه، وإذا رفض أخذ الذي وصفه الطبيب عليكم أن تجرّعوه الدواء بأنفسكم، وتراقبوه لتتأكدوا أنه يأخذ الدواء حتى يشفى». رسائل الأسماك، ما تقوله مذكرات الجنرال همداني: الوصاية الإيرانية على سورية، فاطمة الصمادي، مجلة سياسات عربية، العدد٢٢، أيلول ٢٠١٦.

(٢) يُنظر: تعليم الأطفال اللاجئين السوريين: إدارة الأزمة في تركيا ولبنان والأردن، مؤسسة RAND، ٢٠١٥.

(٣) يُنظر مثلًا: التغلغل الثقافي الإيراني في سوريا (٢) الأدوات التعليمية والاجتماعية، مركز الحوار السوري، حزيران/ ٢٠٢٠.

ما يوجب الإنذار الأحمر لتأكيد حيادية التعليم عن المنازعات السياسية والفكرية، وتأكيد سياديته كذلك فلا يُسمح لأحد بالعبث فيه؛ لأنه عبثٌ في مستقبل البلد عبر الإخلال في تربية حَمَلَة أركانه من الطلاب.

وقد سرَى بين السوريين من الدعاة والـمُصلحين اليومَ ما حذّر منه الطنطاوي منذ عقود من الاختلاف والتنازع في الفروع وترك الأصول الجامعة، فانصرف الناس عن الدعوة، بل جمحَ فريقٌ فانصرف كذلك عن الدِّين، وخرجت دعوات إلحاد وانحراف لا تعرفها الشام وأهلها؛ ولعل هذا ينبّه الـمُصلحين على خطورة رأس مال الثورة والبلد، وهم الشباب، الذي خاطبَهم الطنطاوي همسًا في آذانهم وغمسًا في أرواحهم لشدة قربه منهم، فهلّا تساءلنا عن مدى قربنا من الشباب وانشغالنا بمشاريع تنفعهم قبل العجب لانحرافهم وانصرافهم إلى دعوات الباطل!

وبمثل ذلك القرب نقترب من الناس في معاشهم وأوجاعهم؛ فلن يسمع الناس صوتًا يأتي من بعيد، ولا بد للإصلاح حتى ينفع ويحقق هدفه أن يُلامس أوجاع الناس وآلامهم، ليرتقي بهم ويمسح على جراحهم؛ فأكثر أهلنا في ضيق وحاجة مع الأمراض السارية الشديدة، فلا ينشغل المـصلحون بأدواء الفكر والتعليم والاجتماع عن جوع الناس ومرضهم؛ ولا يغرقون معهم فيها كذلك فلا يرون الأدواء الأخرى، إذ قد تكون أخطر عليهم في دينهم ودنياهم من الجوع والمرض.

فالحديث عن فساد في الجمعيات والمؤسسات والأفراد العاملين لن ينفع دون استنهاض الهمم للإصلاح، فإن كان ثمة فساد ففي الناس خير كثير وصلاح، وإن كانت حاجةٌ ففي السوريين مُوسِرون وأغنياء؛ لكن على الـمُصلحين حُسن الوصول إليهم ليحملوا الضعفاء والمحتاجين، كما أن عليهم التوجيه والسعي لجمع الكلمة بين العاملين في القطاع الإنساني لتنسيق الجهود وتسديدها.

والدعوة الإصلاحية للنزول إلى الميدان والعيش مع الناس لإصلاح ما فسد في شتى جوانب حياتنا لا يعني بحالٍ أن ينزل كل الرُّماة عن الجبل، فلا بد من دوام المرابطة على ثغور الفكر والثقافة؛ فليست الحرب الناعمة اليومَ على السوريين بأخفّ خطرًا وأقل ضررًا من الحرب الساخنة التي حصدت ملايين منا، فلا بد من تنشيط مراكز الفكر والبحث؛ فأمامها قضايا كثيرة للعمل بها، مما يمدّ جبهات الإصلاح الأخرى كلها بالمُؤَن من أبحاثٍ ودراساتٍ جادّة توجّه البوصلة نحو برّ الأمان الذي يبحث عنه السوريون؛ ففي الاجتماع والتعليم والدعوة والاقتصاد والفكر كثيرٌ مما يلزم دراسته وتحليله والخروج بتوصيات تبيّن الصواب فيه؛ فهو عبء لا يقل أهمية في الإصلاح عن غيره، وكثيرون ممن أُخذوا وانحرفوا إنما كان ذلك من انحراف مصادر التلقي والبحث عندهم، وقضايا عظيمة في ثورتنا ما زال التوثيق فيها دون مستوى التضحيات؛ فلا بد من استنفار جهود الباحثين والكتّاب للتدوين

والكتابة على امتداد الجبهات.

وقد بدأ الطنطاوي كتابه في سبيل الإصلاح برسالة عنوانها «أين الأقلام»، وكان مما قال: (نحن اليومَ في معركةٍ مع الاستعمار؛ فهل رأيتَ جيشًا في معركة يَدَعُ مَدافعه فلا يُطلقها؟! وإنَّ مِن أمضى أسلحتنا لَهذه الأقلامُ؛ فما لِهذه الأقلامِ نائمة؟! وما لبعضها لا يزال يلهو ويلعب؟!)[١]

## خاتمة:

لم يكتب الطنطاوي رحمه الله في سبيل الإصلاح ليظهر مُصلحًا مبرزًا؛ بل صرخ في الناس منذ نحو مئة عام، وامتدت صيحته مع الأجيال لينهض المصلحون، فهي صيحة ليكون كل واحد منا مُصلِحًا ساعيًا في سبيل الإصلاح، فقال في مقدمة كتابه: (إننا إن لم نجد في عصرنا من المصلِحين كالذين كانوا في الصدر الأول؛ فلا أقلّ من أن نتشبَّه بهم ونسلك سبيلهم، فنصيح بالناس بقَدْر ما في حناجرنا من قوة؛ ندعوهم إلى الإصلاح وندلّهم على طريقه، وإذا جاءت أصواتنا خافتة فضاعت في جلَبة المجتمع فلم تُسمع؛ فإنّ حسبَنا أنْ فعلْنَا ما استطعْنَا)[٢]، وحينما دفعه للطباعة بعد نحو ستين سنة من إصداره أول مرة قال: (حاولت وأنا أكتب وأؤلف وأخطب وأحاضر من ستين سنة أن أجعل حظًّا من عملي هذا في سبيل الله، ثم في سبيل الإصلاح)[٣].

فوظيفة الإصلاح لا تقاعُدَ فيها ولا انفصالَ عنها، وهذا ما يوافق رسالة ديننا الحنيف؛ فالإصلاح لم يكن يومًا عندنا في المساجد وحدَها، وليس هو وظيفةَ علماء الدِّين والدعاة وحدَهم؛ فالفسادُ عمّ واشتدّ، وصار الإصلاحُ واجبَ الوقت، ولا يسع صاحبَ رسالةٍ التخلفُ عنه والتعذّرُ عن القيام به، ولا يكلّف الله نفسًا إلا وسعها؛ فَلْنسلكْ طريق الإصلاح، ولا يهمّنا أن نُدرك صلاح الأمة؛ بل همُّنا ألا نموتَ إلا على جادّة الإصلاح.

(١) في سبيل الإصلاح: ص٢٣.

(٢) في سبيل الإصلاح: ص٢١.

(٣) في سبيل الإصلاح: ص١٤.

# دور الإعلام في نشر المفاهيم الخاطئة.. نتفليكس نموذجًا

د. عبد العزيز محمد الخلف

رئيس قسم أصول الدين في أكاديمية باشاك شهير بإسطنبول

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، أما بعد:

فإنه مما لا شك فيه أن الإعلام المعاصر لعب دورًا بارزًا في صناعة الوعي لدى شريحة واسعة جدًا من المتلقين، حيث أصبحت وسائل الإعلام المعاصرة جزءًا لا يتجزأ من حياة الكثيرين، وأصبح الإنسان يوجَّه عن طريقها إلى ما يريده المرسِل. وما الاهتمام العالمي بوسائل الإعلام والاتصال صناعة وإنتاجًا وتسويقًا ومتابعة إلا دليل بسيط على ما له من أهمية كبرى في التوجيه والتأثير في حياة الأفراد سلبًا وإيجابًا[1].

وقد ازداد تأثير الإعلام بعد اختراع الأقمار الصناعية، والبث المباشر، وزيادة أعداد المحطات الفضائية بشكل كبير، وانتشار شبكة الإنترنت وربطها العالم بشرايين معلوماتية لم تكن متاحة سابقًا، الأمر الذي جعل من السهل التأثير على جمهور كبير في دول العالم كافة.

ولكن الملاحظ أن هذا الإعلام ليس بريئًا أو محايدًا، بل هو في غالبه موجه لخدمة أهداف وغايات محددة، وكثيرًا ما يدس في العسل سمًا، وهو يرمي إلى تطبيع كثير من القضايا التي لو تناولها مباشرة لوجد صدًّا، ولكنه يمررها تمريرًا غير مباشر حتى تألفها العين ويعتادها القلب فتصبح طبيعية مقبولة، وهي في حقيقتها انحراف وشذوذ.

وسنحاول في هذا المقال تسليط الضوء على دور الإعلام في نشر المفاهيم الخاطئة، ونضرب مثالًا على ذلك بشبكة نتفليكس المشهورة بنشر الأفلام والمسلسلات عبر الإنترنت.

## أولاً: مفهوم الإعلام:

**الإعلام لغة**: الإشهار والإعلان والإخبار بشيء أو عن شيء.

**واصطلاحًا**: تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة التي تساعدهم في تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات، بحيث يعبر هذا الرأي تعبيرًا موضوعيًا عن عقلية الجمهور واتجاهاته وميوله، وهذا التعريف إنما هو للإعلام المحايد. ولا يقتصر دور الإعلام في الواقع على

(١) قوة وسائل الإعلام، عبد الله حمد الحقيل، قافلة الزيت، ١٤٠٢، ص: ٤٢.

ذلك، ولذلك يرى بعضهم أن الإعلام ليس مجرد إعطاء معلومات وإنما المقصود هو عملية تغيير اتجاهات وتحريك الجماعات للعمل في اتجاه معين لتحقيق الأهداف المرجوة، وهذا هو الإعلام الموجَّه[1].

## ثانيًا: وسائل الإعلام في التأثير:

يعتمد الإعلام في تأثيره على دراسة العقل البشري الذي يميل عمومًا إلى ما يسمى الراحة المعرفية أو التفكير بسرعة، حيث يركن الإنسان لاتخاذ قرارات سريعة مبنية على انطباعات وعواطف بعيدًا عن الضغط المعرفي أو التفكير ببطء، ذلك أن التفكير المعمَّق يتطلب دراسة متعمقة للقضية التي يراد اتخاذ قرار بحقها، وهذا يستلزم تركيزًا ويستدعي جهدًا، بخلاف اتخاذ القرارات بناء على نظرة سطحية سريعة متأثرة غالبًا بعاطفة مغلوطة، وهذا ما يسمح للإعلام أن يؤثر في المتلقين، لأن أغلبهم يتأثر عاطفيًا أكثر من كونه يتعمق في التحليل والتفكير قبل التأثُّر.

ولا يقتصر دور الإعلام على نشر الحقائق وتصوير الأشياء كما هي، وإنما يقوم بلعب دورٍ بارزٍ في تشكيل قيم المجتمعات، بل هو المشكِّل الأول لتلك القيم، ويستخدم في سبيل تأسيس هذه القيم مجموعة من الوسائل منها:

١ـ **التأثير التراكمي**: فالمتلقي لا يتأثر مباشرة، بل يتأثر خلال فترة طويلة، بحيث تتغير قناعاته رويدًا رويدًا، فربط الإرهاب بالمتدينين مثلًا لم ينشأ بلحظة واحدة، وإنما استغرق ذلك مدة زمنية طويلة، حتى وصلنا إلى مرحلة ينظر فيها إلى كل متديِّن على أنه إرهابي محتمل، ولذلك يصوِّر الإعلام الإرهابي دائمًا في صورة رجل متدِّينٍ.

٢ـ **التطعيم**: كثرة التعرض لأمر ما تصنع بلادة، فعرض اللقطات الفاضحة والخادشة للحياء تقابل بالاستنكار والاستهجان أولًا، ولكن مع تكرارها وعرضها في أوقات ومناسبات مختلفة تخفف ردة فعل المتلقي، فيبدأ بالاعتياد عليها وتبدأ ردّات الفعل المستنكرة تخفت شيئًا فشيئًا وصولًا إلى تقبلها والاستمتاع بمشاهدتها أحيانا.

٣ـ **صناعة قدوات للمجتمع من التافهين والساقطين أخلاقيًا**: حيث يسوق الإعلام لكثير من الفنانين المنحرفين أخلاقيًا ويقدمهم على أنهم قدوات للمجتمع، فيبدأ الشباب بتقليدهم والسير خلفهم في انحرافاتهم وميوعاتهم. ويقابل ذلك سعي محموم من الإعلام لإسقاط الرموز والمصلحين والعلماء وتتبع سقطاتهم والتندر بهفواتهم وترويج أخطائهم، ليفقدوا التأثير في مجتمعاتهم تدريجيا.

٤ـ **تبني رموز المجتمع المتمثلة بما يروجه الإعلام**: وهذا يجعل المجتمع يتقبلها بشكل أسرع، فالإعلام الذي صنع رمزية هؤلاء وكرَّس شهرتهم جعل منهم وسيلة لترويج ما يريده، فيكون لتبنيهم

(١) انظر: دور الإعلام في العصر الرقمي، محمد خليل الرفاعي، مجلة جامعة دمشق، المجلد ١، العدد ١، ٢٠١١، ص: ٧٠٥.

القيم الشاذة والتصرفات المنحرفة تأثيرٌ كبيرٌ على الجمهور، لا سيما وهو يراهم القدوة والمثل، ورتبتهم مقدمة على كثير من المفكرين والمبدعين، مما يجعل تبنيهم لما يسوقه الإعلام يلقى رواجًا كبيرًا.

٥ـ **التسطيح الفكري**: بحيث تحصر اهتمامات الشباب في قضايا تافهة، ولا أدل على ذلك مما يسمونه تلفزيون الواقع، حيث تخصص الساعات الطويلة لبث توافه الأشياء، مما لا يكسب معرفة ولا يزيد اطلاعًا ولا يكسب مهارة، بل هو إمعان في التفاهة، حتى غدت بعض وسائل الإعلام كاليوتيوب مثلًا مرتعًا خصبا لكل تافه ينشر على قناته يومياته وأعماله وخصوصياته التي لا يستفيد منها المستقبِل أي شيء، خلا أن تمر الساعات الطوال أمام الشاشة دون أدنى فائدة. والعجيب أن هذه التفاهة انتقلت لتصبح صناعة يُستثمر فيها، ويكسب أصحابها من ورائها الكثير من الأموال، مما يدلل على ما نقول من أن رعاية هذا التوجه هدف لأرباب وسائل الإعلام.

ولذلك بدأت تروَّج كثير من المفاهيم الخاطئة عبر هذه الوسائل الإعلامية، حيث غدت الرذيلة حرية شخصية والإلحاد تنويرا عقليًا والتفاهة ملأ للفراغ، وبدأ المجتمع يتقبل هذه الأفكار ويراها سائغة مقبولة، وينكر على من يستنكرها أو يستهجنها، ويصوره على أنه متخلِّف رجعي يقف أمام عجلة الحياة السائرة.

## ثالثًا: دور الإعلام في نشر المفاهيم الخاطئة:

أثبتت الدراسات العلمية وجود علاقة طردية بين ما يشاهده الشباب وبين الانحراف، فقد أثبتت دراسة بحثية على شباب أحداث أن نسبة ١٦.٧٪ فقط يشاهدون في وسائل الإعلام برامج توجيهية، سواء أكانت برامج دينية أو ثقافية أو علمية، في حين أن نسبة ٥١٪ يشاهدون البرامج الرياضية، بينما ٦٤.٢٪ يشاهدون برامج مثيرة كالأفلام والمسلسلات والمسرحيات[١]. ولا شك أن الفرد يتأثر بما يشاهده، ولما يشاهده أثر واضح في سلوكه، يقول براندون سنتروال: إنه لو لم يخترع التلفاز لكان هناك في الولايات المتحدة الأمريكية في هذا العصر انخفاض في الإجرام بنسبة عشرة آلاف جريمة قتل سنويًا، وسبعين ألف جريمة اغتصاب، وسبعمائة ألف جريمة عنيفة، كما لاحظ براندون أن التلفاز دخل أمريكا عام ١٩٤٥، وأنه في ما بين العامين ١٩٤٥ والعام ١٩٧٤ ارتفعت نسبة القتل في أمريكا بنسبة ٩٣٪، بينما لاحظ أن جنوب أفريقيا التي حظرت التلفاز في تلك الفترة قد انخفضت فيها نسبة الجريمة بنسبة ٧٪، بينما ارتفعت النسبة ١٣٠٪ في جنوب أفريقيا ذاتها عام ١٩٨٧ بعد إدخال جهاز التلفاز[٢].

(١) قضاء وقت الفراغ وعلاقته بانحراف الأحداث، عبد الله بن ناصر السدحان، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، ط١، ١٩٩٤، ص (١٦٩).

(٢) أثر الإعلام المعاصر في العقيدة والتربية والسلوك، مي

وبما أن وسائل الإعلام مملوكة في أغلبها لغير المسلمين الذين يسعون جاهدين إلى السيطرة على العقول فإنه من الطبيعي أن يكون لها خططها الرامية إلى نشر أفكار أصحابها وتنحية أفكار غيرهم، لاسيما تلك الأفكار التي تعارِض أهدافهم الكبرى التي يسعون لتحقيقها، والمتمثلة في نشر الإباحية والفساد والإلحاد بين الناس، حتى يصبح الناس عبارة عن دواب تسير على الأرض، همها إرضاء شهوتي البطن والفرج، وهو ما يخدم الشركات العالمية المتحكمة بالسياسة الدولية، ولذلك دأب الإعلام على تقديم الكاسيات العاريات على شواطئ البحار وفي النوادي الليلية والحفلات الراقصة وصالونات المجتمع على أنهن الزمرة الراقية والفئة الكريمة من السيدات ليكن قدوة لبناتنا، وقدمت هذه الوسائل جريمة الجنس والزنا في ثوب زاهٍ، وعرضت قصص الجريمة وعلمت سرقة بيوت الناس، وكيفية الترصد لبنات الجيران، ودافعت عن أدب الفراش والجنس، وحرَّضت المرأة على الاندفاع وراء الرغبات الجنسية غير السوية، وإلى السخرية من القيم الدينية المنضبطة.

وزادت وسائل الإعلام من حربها على القيم، فأعْلَت من شأن الراقصات والمغنيات والممثلات، وبالغت في تكريمهن، وتقديمهن للمجتمع على أنهن نجوم وكواكب وقدوات للجماهير[1].

«إن من أسوأ آثار التلفزيون أنه يعوِّد على التغاضي عن كثير من الفضائل الاجتماعية ويهدمها، حتى صار المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، فصرنا نتقبل أن يحتضن رجلٌ بنتًا شابةً لأنه يمثِّل دور أبيها، وصدَّقنا ذلك ولم ننكره، بل نحن مطالبون بأن نأخذ الأمور بعفوية وطبيعية»[2].

وكل هذا ليس بريئًا، بل هو يخدم مخطط الشيطان في السيطرة على الإنسان، ذلك الشيطان المتمثل في شكل شركات تجارية همها إفراغ جيوب الناس.

ولنضرب مثالًا آخر على دور الإعلام في نشر الرذيلة، حيث تقول إحدى المقالات التي تبحث في كيفية تعديل عقلية الأمريكيين في تقبل فكرة ممارسة الشذوذ أن (٢.٧٪) من الأمريكيين يمارسون الشذوذ، وأنه في عام ١٩٩٦ كانت نسبة المتقبلين لممارسات الشواذ (٢٧٪)، بينما أصبحت في عام ٢٠١٥ (٦٠٪)، وكل ذلك بجهود الإعلام والتعليم. بينما انظر إلى قضية زواج الفتاة في سن الخامسة عشرة عند المسلمين، مع بلوغها وقدرة جسمها على التحمل، فإنها مع كونها قضية عادلة إلا أنه ينظر إليها على أنها جريمة، لأن الإعلام يريدها أن تبقى كذلك. بينما يصورون الفتاة الصغيرة التي تمارس الجنس برضاها خارج مؤسسة الزواج على أنه حرية جنسية، ومما يؤكد

(١) الدين عوير، دار النهضة، ٢٠٠٧، ص (١٧١).
المرجع السابق: ٢٢٠.

(٢) بصمات على ولدي، طيبة اليحي، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٢، ١٩٨٩، ص: ١١.

ذلك الفيلم الذي أنتجته نتفليكس عن فتاة مهاجرة عمرها إحدى عشرة سنة تكره أسلوب حياة أهلها، ثم تبدأ بالتعلم من صديقاتها كيفية الرقص وممارسة الجنس وهي ما زالت طفلة.

في عام ١٩٨٢ أجريت مقابلة مع روجر مونرو بعنوان (رحلة في عالم الماورائيات) وهو رجل كندي يروي قصة انضمامه إلى جماعة سرية تعبد الشيطان، وبعد أن تركهم كتب عدة مقالات منها هذه التي تحدث فيها عن خيوط المؤامرة، وأنها تقوم على ثلاث ركائز كبرى حتى يحكم الشيطان العالم، وهذه الركائز هي:

١ـ إقناع الناس بعدم وجود إبليس. حتى لا تقاومه أو تحذره، وما موجة الإلحاد إلا خطوة في سبيل عبادة الشيطان، الذي قد يكون هو الشيطان نفسه أو الدجال كما تقول بعض النظريات.

٢ـ إيجاد طريقة للسيطرة على عقول الناس، وكان السحر قديمًا هو السبيل لذلك، بينما أصبح سحر هذا العصر هو هوليود، التي تقوم بالجزء الأكبر من ذلك، ونتفليكس جزء بسيط من ذلك.

٣ـ القضاء على الأديان بنسفها من الداخل، فقبل خروج الدجال يجب القضاء على الأديان أو تهميش دورها في الحياة[١].

## رابعًا: شبكة نتفليكس الإعلامية:

### ما هي نتفليكس:

نتفليكس بالإنجليزية: (Netflix) هي شركة ترفيهية أمريكية أسسها ريد هاستنغز ومارك راندولف في ٢٩ أغسطس ١٩٩٧، في كاليفورنيا تتخصص في تزويد خدمة البثّ الحي والفيديو حسب الطلب وتوصيل الأقراص المدمجة عبر البريد.

وفي عام ٢٠١٣، اتجهت نتفليكس نحو مجال صناعة الأفلام والمسلسلات، وبدأت عرض أول مسلسل أصلي تقدمه الشركة، وبعدها ازدادت عدد البرامج الأصلية التي أنتجتها نتفليكس من الأفلام والمسلسلات والبرامج الوثائقية، والعروض الكوميدية. وقد أطلقت نتفليكس حوالي ١٢٦ عملًا أصليًا في عام ٢٠١٦، وهذا العدد هو أضخم مما أطلقته أي شبكة أو قناة تلفزيونية اعتيادية.

أعلنت شركة نتفليكس في شهر أكتوبر من عام ٢٠١٨ عن زيادة عدد مشتركي الخدمة ليصل إلى ١٣٧ مليون مشترك من جميع أنحاء العالم، من

(١) رابط مقابلة روجر مونرو:
...https://www.youtube.com/watch?v=z91Qc

ضمنهم ٥٨ مليون مشترك في الولايات المتحدة[١]. فيما وصل أواخر ٢٠١٩ إلى ١٥٨ مليونًا، أما في ٢٠٢٠ فقد صرَّح مدير الشبكة أن عدد المشتركين تجاوز ١٩٥ مليون مشترك.

وإذا علمت أن الشركة تتقاضى اشتراكًا شهريًا بحد أدنى ١٠ دولارات شهريًا فلك أن تدرك الميزانية الضخمة التي تمتلكها الشبكة، فإذا أضفت إليها الإعلانات التجارية فإن هذه الميزانية ستتضاعف مرات.

**على ماذا تركز شبكة نتفليكس الإعلامية؟:**

تركز شبكة نتفليكس على الترويج لأسلوب الحياة الغربية، وتجعل من نشر الفاحشة والشذوذ الجنسي والترويج للمثلية الجنسية هدفًا لها، يتضح ذلك من خلال زجها لكثير من المشاهد الجنسية في أكثر أعمالها، حتى غدت هذه المشاهد ـ التي تزج بدون أي ارتباط بالعمل ـ طابعًا مميزًا لأعمالها.

وما يؤكد على أن نشر هذا المحتوى الخادش هدف رئيس لها أن نتفليكس لا تقبل مجرد المناقشة في حذف هذه المشاهد من مسلسلاتها وأفلامها، ولو افترضنا أن أحدًا طلب من شبكة نتفليكس حذف شيء من إنتاجها الذي يحتوي على محتوى إباحي فهل تستجيب؟ يجيب عن ذلك مدير شبكة نتفليكس، حيث يسأله صحفي من جريدة نيويورك تايمز؛ بأن هوليود كانت متهمة دائمًا بأنها تصدر قيمها وثقافتها فهل أنتم مثلها؟ يقول مدير الشبكة: لا أرى أن نتفليكس تقدم شيئًا آخر سوى الترفيه، وتعمل على صناعة المحتوى ومشاركته بين الناس، فلما سأله عن إمكانية حذف محتوى عن الشذوذ أو المثلية هل تستجيبون كما استجبتم لطلب إحدى الدول التي طلبت حذف حلقة إخبارية تتحدث عن زعيم عربي؟ أجاب مدير نتفليكس: إذا قيل لي لا تضعوا أو احذفوا محتوى عن الشذوذ أو المثلية فلن أتجاوب معهم، المهم أن تستمر شبكتنا في مشاركة أسلوب الحياة (اللايف ستايل)، وهدفنا الوحيد أن نؤثر في أسلوب الحياة لدى الآخرين[٢].

إن ما تقوم به نتفليكس وأمثالها من الترويج لأسلوب الحياة الغربي وجعْل المتلقين يتأثرون به؛ شكل من أشكال نشر الإلحاد الذي هو سبيل التأسيس لعبادة الشيطان كما ذكرنا. بحيث يصبح هدف الشاب أن يكون له صديقة، مع عدم شعوره بالحرج من شرب الخمر، أو بالغرابة من الشذوذ، حتى يكون جزءا من الحياة الجديدة التي يجري التخطيط لها وصنعها.

ويمكن أن يقال: إن هدف هذه الشبكات هو الربح وحده، فهي تنشر هذا المحتوى المثير للجدل حتى تكسب أكبر عدد من المشاهدات، وليست لها أجندة أو أهداف خارج منظومة الربح. ولكن

(١) https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D8%AA%D9%81%D9%84%D9%8A%D9%83%D8%B3%D9%

(٢) رابط مقابلة مدير شبكة نتفليكس: https://youtu.be/7V6FFeZdFz4

لو تساءلنا: هل يمكن لمثل هذه الشبكات أن تنشر محتوى قيميًا يرسم صورة إيجابية للمسلمين، أو يتعاطف مع المسلمين؟ مع أن محتوى كهذا سيجلب الكثير من الجدل، وبالتالي الكثير من المشاهدات، وهذا ما لم يفعلوه ولو مرة واحدة.

الحقيقة أنهم ينشرون القضايا الجدلية التي تدر عليهم الربح، ولكن فيما يصب في مصلحة نشر أسلوب الحياة الذي يريدون نشره، وبما يخدم تسريع خروج الدجال الأكبر حسب معتقدهم، أما ما يناقض ذلك فيبتعدون عنه ولو جلب لهم أرباحًا مضاعفة، وهذا ما يدل بوضوح على أنهم يقصدون مع استهداف الربح خدمة قضية أكبر.

كما أن هذه الشبكة تقوم بإنتاج كثير من المسلسلات التي تشجع على المثلية والشذوذ والسحاق وتعليم الجنس وغيرها من الأمور التي تحرف الجيل وتدفعه لترك دينه. ولا يقتصر دورها على البث والنشر وإنما هي في ذلك منتجة مشجعة مروجة. وهي تحاول جاهدة إدراج كثير من المشاهد الإباحية والمثلية والمشاهد الساخرة من الأديان بغرض تطبيعها، لأن كثرة مشاهدتها تجعل الإنسان يراها طبيعية مع مرور الوقت، بل قد يصل الأمر لاستساغتها وتبريرها.

يقول أحد الباحثين: «لا يحتاج المرء أن يكون حاصلًا على الدكتوراه في علم النفس أو خبيرًا بفنون البروباغاندا حتى يستوعب أن الذي يحصل هنا عملية غرس منظم لقيم موجهة، تتمثل بإغراق المشاهد بسيل من اللقطات الصادمة حتى يتطبع عليها، وتتحول من أفكار ومشاهد صادمة إلى غير صادمة، وتواصل التطور فتصبح عادية، ثم تصير بعدها مقبولة، وأخيرًا تنتهي بكونها طبيعية بل ومستحبة»(١). ويقول أيضًا: «ولو اقتصر الأمر على المسائل المتعلقة بالهوية الجنسية وحدها لنحى النقاش منحنى آخر، ولكن الجانب الأخطر متعلق بغرس الرسائل التشكيكية والتحقيرية من الأديان بشكل أكثر منهجية، وهو بازدياد مع مرور الزمن. لا شك أن ثيمة السخرية من كل ما هو مقدس ومتعلق بالذات الإلهية موجود في الغرب منذ زمن طويل، بل يمكن تتبع هذا إلى فترة الثورة الفرنسية كظاهرة اجتماعية في أوروبا. الجديد هنا هو ازدياد الجراءة على هذا الفعل بالإفراط في إنتاج العروض والثيمات التي تعلي من شأن الشياطين وإبليس وتجبر المشاهد على التعاطف معهم وتفهم موقفهم في حبكات تستدعي القصص الدينية المتعلقة بالخلق وإعادة سردها في أضواء جديدة، وكذلك السخرية المستمرة من الذات الإلهية وإطلاق النكات عليها وتصويرها

(١) لماذا ألغيت اشتراكي في نتيفليكس، هاشم الكحلاني، مقال منشور على مدونات الجزيرة:
https://www.aljazeera.net/blogs/2020/4/15/%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%B0%D8%A7-%D8%A3%D9%84%D8%BA%D9%8A%D8%AA-%D8%A5%D8%B4%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D9%83%D9%8A-%D8%A8%D9%86%D8%AA%D9%81%D9%84%D9%8A%D9%83%D8%B3

بطرق ساخرة وباعثة على الازدراء»[1].

والخلاصة أن هذه المؤسسات ذات التوجه الأيديولوجي البيِّن تحاول القضاء على أي صلة بين الإنسان وربه، لتصل لمرحلة تنعدم فيها الجوانب الروحية للأديان، وتستبدلها بمنتجات بشرية تعلي من شأن المادة وتعظم من القيم والأفكار المضادة لما تدعو إليه الأديان، ولا شك أن شبكة نتفليكس رأس حربة في هذا، رغم أنها ليست الوحيدة في هذا الميدان.

## حكم الاشتراك في نتفليكس:

لا شك أن دفع أي قرش في سبيل الاشتراك في هذه الشبكة وأمثالها حرام، لأن ما تدفعه يمول إنتاج هذه البرامج والمسلسلات والأفلام ذات المحتوى الجنسي المحرم، أو تذهب لتمويل الأفلام التي تسخر من الذات الإلهية والأديان، لاسيما إذا عرفنا أن إيرادات نتفليكس الشهرية تتجاوز ملياري دولار شهريًا، فلا شك أن هذه الميزانية الضخمة يأتي جزء كبير منها مما يدفعه المشتركون فيها، فحتى لو ابتعد المشترك عن مشاهدة ما فيها من حرام فإنه يسهم بما يدفعه في تمويل إنتاج هذه المسلسلات والأفلام التي تروج للباطل، والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة:٢]. وقد ذكر الفقهاء تحريم كثير من الأمور سدًّا للذرائع، يقول ابن دقيق: (وسيلة الطاعة طاعة، ووسيلة المعصية معصية، ويعظم قبح الوسيلة بحسب عظم المفسدة)[2].

فإذا كان هذا حكم الاشتراك في هذه الشبكة فإنه من باب أولى تحريم شراء أسهم هذه الشبكة، لأنه بذلك يصبح شريكًا في المعصية وليس معينًا عليها فقط، فلا شك بتحريم ذلك، والله أعلم.

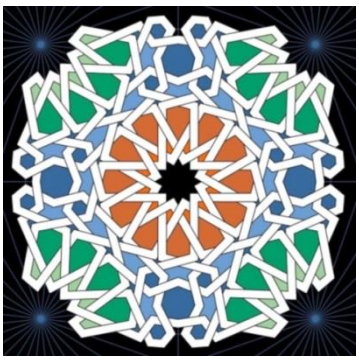

(١) المرجع السابق.

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد، مطبعة السنة المحمدية: (٢٦٦/٢).

# فلسَفةُ الأَخذِ والعَطاءِ في الإسلام.. وجهُ الإنسانيةِ المُشرق

د. عماد كنعان

أستاذ في جامعة كلس ـ باحث وكاتب

## جرب أن تقرأ بنور قلبك

أُهديك عزفَ حروفٍ قُدَّتْ من أنفع وأنفس وأبرك مَعينٍ أشرقت عليه الشمس وسامره القمر، أهديها غضَّةً طريَّةً كأنها حديثة عهد بربها، إنها كالمطر الزلال العذب الفرات الميمون، أهديها لك عساك تُمنح نعمة قراءتها بقلبك، جرب أن تقرأ ما بين يديك من آلاء الله بنور قلبك، من أجلك جرب أخي المكرَّم.

أهديكم تلكم الأطياف التي نَسبُها ربانيٌّ بشهادة الخالق والخلق، ومن أعيان أفلاكها قبس من وحي طور موسى الكليم عليه السلام، وقَدَر جميل من غار محمد عليه أشرف الصلاة والسلام، أهديها إلى من ابتُلِيَ بضرورةِ معاملة البخلاء الذين يعيشون لأنفسهم عالةً على النَّاس يتلقَّفُونَ فُتَاتَ موائدهِم؛ خَشيَةَ أن ينزَلِقَ مخالطُهم في مستنقعات ذُلِّهم، ويتعرَّى من عِتْرَةِ أصحاب اليد العليا.

## بَشَائرُ بين يَديك

إنه أَنْفَعُ للمرء أَنْ يُصَوِّبَ مقاصد تعامله مع الخَلْقِ، وأن يُحَسِّنَ مناهج تواصله معهم، وذلك عبر إدراك خصالهم السلبية: من أسقامٍ خُلُقِيَّةٍ معديةٍ، وهَناتٍ نفسيّةٍ مُجْحِفَةٍ، وأدواءٍ فطريَّةٍ مُعْضِلَةٍ، وهو بتحرِّيهِ الشخصي واستكشافه الحصيف لعيوبهم اليسيرة والكبيرة على السواء يستطيع رسم خارطةٍ واضحةِ المعالم تَدُلُّهُ على أنجع السبل أثناء تواصله معهم بحيث ينفعهم فيما يطيق، ويحذر من شرورهم التي يعلم أو يجهل، وهو ما يحفظ عليه سعادته من جهة، ويديم له حسن تواصله معهم من جهة أخرى.

وقد حَدَّثَ أبو إدريس الخَوْلَانِيُّ، أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**» قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم وفيه دَخَنٌ**»، قلت: وما دخنه؟ قال: «**قوم يهدون بغير هديي، تَعْرِفُ منهم وتُنْكِرُ**» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ فقال: «**هم من جِلْدَتِنَا، ويتكلَّمُونَ بألسِنَتِنَا**» قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين**

**وإِمَامَهُم»**، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: « **فاعتزل تلك الفِرَقَ كُلَّهَا، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»[1].

إن شمعة العمر هي جسدٌ عليلٌ يحترقُ شوقًا إلى قبرٍ آمِنٍ، وإن الحياة ليست إلا بابًا من أبواب المحن الدَّافقةِ كأطياف الصبح إذا تَنَفَّس، وإن أحكم الخَلْقِ من أبصر وعورة الطريق، وتَعَرَّفَ أزقة المشوار المُلَغَّمَةِ وحدد بعناية أروقته الخانقة الضيقة، ثُمَّ إنه شَرَعَ على عجلٍ دونما إفراط مضني أو تفريض مبدد، بغية تطبيب الجراح النازفة، وترميم ما أفسد القلب الهائم والعقل المعاند، وذلك بعدما تحقق له على بصيرة أن خَالِقَهُ بالمرصاد، والنَّار دونما أدنى تردٍ تتربَّصُ بالمكابرين الدوائر.

## الحل اليتيم.. في التَّربية والتَّعليم

امتنَّ الله سبحانه علينا أن أنْبَتَنَا نباتًا حسنًا في كنفِ أسرةٍ مؤمنةٍ، تُحِسُّ بآلام النَّاس، وتَرِقُّ لسُهَادِ أَنِينِهِم، وتَسْكُبُ الدمع النَّديَّ لبَوْحِ مُصَابِهِم، ولقد كانت كلماتُ وَعْظِهِمْ المُكَرَّرَةِ تستوطنُ قَعْرَ آذاننا، وطالَمَا تذمَّرنا من إرشادهم لنا صغارًا، غير أننا اليوم ممتنُّون لصادقِ نصحهم كبارًا.

الوالد الكريم لم يكن يبرح يهمس في لحظات سكوننا إذا ما تناهى له أن أحدًا ما قد بذل لنا معروفًا، يا بُنَيَّ: لا ترمي أَحْمَالكَ على النَّاس.

والوالدة الحبيبة تحذرنا ـ صبَّحنا مسَّانا ـ من قُبْحِ شيمةِ عدم رد الجميل إلى الغير مؤكدةً علينا بحزمٍ، يا بُنَيَّ: خُبْزُ الرِّجال على الرِّجال دَيْنٌ، وعلى الأنذال صدقةٌ.

هكذا رُبِّيْنَا، نستمع للطيف نصحهم بآذاننا، ثُمَّ لا نلبثُ أن ننصتَ له بقلوبنا.

نحن بفضل الله وحده ما هجرنا ما تربَّينا عليه قطُّ، وطالما أُبْنَا لسالف عهدنا إذا ما مسَّنا طائفٌ من الشيطان فانثنينا:

**ويَكْبُرُ ناشئُ الفتيانِ فينا**

**على مـــا كانَ عَـــوَّدَهُ أَبُـــوْهُ**

في المسجد العتيق الدافئ، ما زال شيخنا الحليم، يلقي علينا دروس السيرة النبوية الشريفة، وكأني اللحظة جالسٌ في مجلسه وهو يُسْهِبُ القول بِجِدٍّ دونما أدنى فتور، مؤكدًا أن هذه الشمائل من عظيم فيض النُبُوَّةِ هي للاقتداء والتطبيق، ولم تكن ولن تكون يومًا للإعجاب والتصفيق.

وما أطيب تلكم الأيام الخوالي ذواتِ العَدَدِ التي كنَّا فيها بعد أن نشهد قرآن الفجر، نتسوَّرُ حول وَجْدِ مجلس الذِّكر، ثُمَّ وحي حلقةِ الحِفظ، ثُمَّ نختمُ مع قطافٍ مباركٍ من عبقِ الصحيحين.

وقد كان شيخنا الفاضل سخيًّا معطاءً لا يعرفُ أيّ من أفنان البُخْل وضروبهِ طريقًا إلى

(١) البخاري : كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث: (٣٤٣٠).

قلبه وعقله وجيبه، فعزَّزَ كرمهُ العمليّ نُصْحهُ النظريّ لنا بأن نعيش باذلين لأطايب الموائد، لا أن نتسوَّلَ على فُتَاتِ الموائد، وهو ما عزَّزَ تربيةً أسريةً كانت تراقب ـ عن كسبٍ وعلى وَجَلٍ ـ مبادرات السَّخاء عندنا لتشجعها وتُثَمِّنَهَا، وتستهجن ـ وأحيانًا بقسوةٍ مفرطةٍ ـ محاولات الشُّح فينا لتَقْمَعها، ولا أقول هنا لتهذِّبها وتشذِّبها على الرغم من أن ذلك أنفعُ تربويًا، وذلك أن الأسرة كانت في حالة حساسيةٍ مفرطةٍ دائمةٍ من خُلُقِ (البُخْل الشَنيع) كما كان يحلو لها أن تسمِّيه.

وقد تعلمنا ثُمَّ حَمَلنا إلى من بعدنا أن الصحابة الكرام قد فقهوا جيدًا من معلمهم الأكرم سيدنا رسول الله ﷺ أثر خلق الكرم في النَّفس والأهل والأقربين والأُمَّة جمعاء، فقد ضحوا بأرواحهم، وقدَّموا أبناءهم، وأنفقوا أموالهم، في سبيل أن تسقي غمامة الإسلام الخيِّرة، وِهَادَ الأرض المقفرة ونُجُودَهَا المُجْدِبَة، وذلك بعدما ترسَّخت كلمات الحبيب المصطفى في ثنايا عقولهم، وباتت ضيفةً حبيبةً على ضفاف قلوبهم، فما خانوا العهد، ولا ضيعوا الأمانة، فقد عرفوا ـ أسكنهم الله فسيح جنانه ـ ثُمَّ التزموا بقوله ﷺ: «**لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنَّمَ في مِنْخَرَيِّ رجل مسلم، ولا يجتمع شُحٌّ وإيمانٌ في قَلْبِ رجل مسلم**»[1]، وقوله فداه روحي وبَنِيَّ والوالدين: «**إن البَخِيل بعيدٌ من الله عز وجل بعيدٌ من النَّاس، بعيدٌ من الجنَّة، قريبٌ من النَّار، ولجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله عز وجل من عابدٍ بخيلٍ، وإن أدوى الدَّاء البُخْل**»[2].

## أطيافٌ من أقمارِ إمامِ الأسخياء

إن مولانا وقائدنا إلى كلِّ خيرٍ رسول الله مُحَمَّدٌ الكريم كان أُسْوَةً حَسَنَةً يمضي بِنَا اتِّبَاعُ سيرته الرشيدة إلى تجنُّبِ مزالقِ أخطرِ الطرقات، وعثراتِ أعسرِ المنحدرات، وإلى الأمان من الفزع الأكبر يوم يحشر النَّاس جِثِيًّا، فهو قِبْلَةٌ لنيل شرف الدنيا، وحُجَّةٌ لبلوغ علياء الآخرة.

> البذل في سبيل الله ادِّخار رابح

إن فلسفة الغنى والفقر، والعطاء والأخذ، والإنفاق والإمساك، عند رسول الله ﷺ متباينة جذريًا عن الرؤية القاصرة للغالبية من البشر؛ فالنُّبُوَّةُ تقرر باسم ممثلها في الأرض مولانا رسول الله ﷺ أن البذل في سبيل الله ادِّخار رابح، فمن يحوِّل لقمةً كانت وافدةً إلى فمه نحو فم أخيه هو

(١) أحمد: «المسند»، ومن مسند بني هاشم، مسند أبي هريرة، حديث: (٧٣١٢).

(٢) الخرائطي: «مساوئ الأخلاق»، باب ما جاء في ذم البخل، حديث: (٣٦٠). وانظر؛ الترمذي: «الجامع الصحيح»، الذبائح، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في السخاء، حديث: (١٩٣٣).

امرؤ شبعان، ومن يِضِنُّ بها عليه فيبتلعها نَهِمًا هو خاسر وضعيف الإيمان، ويمكن تبيان هذا الفقه النَّبَوِيِّ لمتلازمة السَّخاءِ والشُّح من خلال الأحاديث الشريفة الآتية:

❁ حدثت عائشة أم المؤمنين أنهم ذبحوا شاة، فقالت: يا رسول الله، ما بقي إلا كتفها؟ قال النَّبِيُّ ﷺ: «**كلها قد بقي إلا كتفها**»(١)، يعني أنه إنما كان لهم ما تصدقوا به فحسب.

إذًا لقد بقيت كلها أي ما بذل عن نفس رضيَّةٍ، وذلك باستثناء كتفها الذي تَقَوَّتَتْ بنت الصِّدِّيق به لتستعين على طاعة الله، هذا يعني أنني في كل مرة أُعْطِي بها فأنا آخُذُ، وهذا تلاحمٌ وتزاوجٌ بل وانصهارٌ بين مفهوم العطاء والأخذ في المنظور النَّبَوِيِّ السديد، وهو فلسفةٌ مبتكرةٌ نادرًا جدًا أن تجد فكرًا بشريًا يؤصلها نظريًا، وسلوكًا إنسانيًّا يؤديها عمليًا.

❁ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما آمن بي من بات شبعانَ وجاره جائعٌ إلى جنبه وهو يعلم به**»(٢).

**إذًا الكرم هو حصن ينجي المسلم من الوقوع في براثن إيمان منقوص لا تستقيم معه عيشة، ولا يستجار من دونه بحبيب، وهو يملي علينا أن لا يملأ شخيرنا أزقة الحيِّ بسبب تُخْمَةِ مَعِدَتِنَا وسائر أروِقَتِهَا بالطعام اللذيذ والشراب السائغ، وجار لنا لا يطيق النوم من شدة قرع طبول الجوع إيذانًا ببدء معارك المغص والدوار وأشباههما.**

والنُّبُوَّةُ تقرر باسم ممثلها الأول في الأرض مولانا رسول الله ﷺ أن الصدقة هي حَلٌّ ناجعٌ لكثير من مشكلاتنا، ووقاية مكفولة من العديد من مصائبنا، وإليك باقة من الوصفات النَّبَوِيَّات النافعات:

❁ عن أبي أُمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء**»(٣).

❁ عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ قال: «**إن صدقة السِّر تطفئ غضب الرَّب، وإن صنائع المعروف تَقِي مصارع السوء، وإن صلة الرحم تزيد في العمر وتقي الفقر، وأكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنزٌ من كنوز الجَنَّة، وإن فيها شفاءً من تسعةٍ وتسعين داءً، أدناها الهَمُّ**»(٤).

❁ عن الحارث الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بِهِنَّ، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بِهِنَّ... وآمركم بالصدقة، ومَثَلُ ذلك كَمَثَلِ رجل**

(١) أحمد: «المسند»، مسند الأنصار، الملحق المستدرك من مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة، حديث: (٢٣٧١٣).

(٢) الطبراني: «المعجم الكبير»، باب من اسمه الأشعث، ومما أسند أنس بن مالك، حديث: (٧٥٠).

(٣) البيهقي: «شعب الإيمان»، فصل فيمن أتاه الله مالًا من غير مسألة، حديث: (٣٣٩١).

(٤) الطبراني: «المعجم الأوسط»، باب الألف من اسمه أحمد، حديث: (٩٥١).

**أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقَرَّبُوهُ ليضربوا عنقه، فجعل يقول: هل لكم أن أفدي نفسي منكم؟ وجعل يعطي القليل والكثير حتى فدى نفسه»**[(١)].

❁ عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ يروي ذلك عن ربه عز وجل أنه يقول: «**يا ابن آدم، أَوْدِعْ من كنزك عندي: لا حَرَقٌ، ولا غَرَقٌ، ولا سَرَقٌ، أُوفِيكَهُ أحوج ما تكون إليه**»[(٢)].

❁ عن أبي هريرة، أن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا مَلَكَانِ ينزلان، فيقول أحدهما اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، ويقول الآخر: اللَّهم أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»[(٣)].

وفي ظلال أقمار سخائه المبهر فِدَاهُ الرُّوح والوَلَدُ، وكريمُ المالِ والنَّسَبِ، وهو الذي كان تُرْجُمَانًا عمليًّا للوحيين، نترنَّمُ على أنغام شدوٍ وابتهالٍ ـ كأنه بَعْضُ أحاديث أهل الفردوس الأعلى ـ بأعراسٍ من عطائه لكريم المال، ومسارعته لبذل نفيس الروح عليه صلاة لا تخبو أنوارها وسلام لا يفتر تغريده:

❁ فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: (كان النَّبِيُّ ﷺ أجود النَّاس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يَلْقَاهُ جبريل، وكان جبريل عليه السلام يَلْقَاهُ كل ليلة في رمضان، حتى يَنْسَلِخَ، يعرض عليه النَّبِيُّ ﷺ القرآن، فإذا لَقِيَهُ جبريل عليه السلام، كان أجود بالخير من الريح المُرْسَلَة)[(٤)].

❁ وعن موسى بن أنس، عن أبيه، قال: (ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجلٌ فأعطاه غَنَمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن مُحَمَّدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفَاقَةَ)[(٥)].

❁ وعن عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رجلًا جاء إلى النَّبِيِّ ﷺ فسأله أن يعطيه، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «**ما عندي شيءٌ، ولكن ابْتَعْ عليَّ، فإذا جاءني شيءٌ قضيته**»، فقال عُمَر: يا رسول الله، قد أعطيته، فما كَلَّفك الله ما لا تقدر عليه، فَكَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ قول عُمَر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أَنْفِقْ؛ ولا تخف من ذي العرش إقلالًا، فتبسَّمَ رسول الله ﷺ، وعُرِفَ في وجهه البِشْرُ لقول الأنصاريِّ، ثُمَّ قال: «**بهذا أُمِرْتُ**»[(٦)].

ويقول القاضي اليَحْصُبِيُّ في مدح كرم النَّبِيِّ

---

(١) ابن خزيمة: «صحيح ابن خزيمة»، كتاب الصيام، جماع أبواب فضائل شهر رمضان وصيامه، باب ذكر تمثيل الصائم في طيب ريحه بطيب ريح المسك، حديث: (١٧٧٨).

(٢) البيهقي: «شعب الإيمان»، التحريض على صدقة التطوع، حديث: (٣١٨٧).

(٣) البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥]، حديث: (١٣٨٥).

(٤) البخاري: كتاب الصوم، باب أجود ما كان النَّبِيُّ ﷺ يكون، حديث: (١٨١٢).

(٥) مسلم: كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيء قطُّ، حديث: (٤٣٧٦).

(٦) الترمذي: «الشمائل المحمدية»، باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ، حديث: (٣٤٧).

ﷺ متعجِّبًا من غرائب ضروبه: «فانظر سيرة نَبِيِّنَا ﷺ وخلقه في المال، تجده قد أوتي خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأُحِلَّت له الغنائم، ولم تُحَلَّ لِنَبِيٍّ قَبْلَهُ، وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب، وما دانى ذلك من الشَّام والعراق، وجلبت إليه من أخماسها، وجزيتها، وصدقاتها ما لا يجبى للملوك إلَّا بعضه، وهَادَتْهُ[1] جماعةٌ من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيءٍ منه ولا أمسك منه درهمًا، بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره، وقوَّى به المسلمين، وقال ﷺ: «**ما يسرُّني أنَّ لي أُحُدًا ذهبًا يبيت عندي منه دينارٌ، إلا دينارًا أرصده لِدَيْنٍ**»، وأتته دنانيرُ مرَّةً فقسَّمها، وبقيت منها ستَّةٌ، فدفعها لبعض نسائه فلم يأخذه نومٌ حتَّى قام وقسَّمها، وقال: «**الآن استرحت**»، ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله»[2].

## ثَقافَةٌ يُنكِرُها الإسلام

إن أصحاب الأَرْغِفَةِ المُعَلَّقَةِ بالنُّجوم لا تطالها إلا أحلام المحتاجين من دون بطونهم الخاوية وأجسادهم العارية، هم متطرِّفون في اقتصادهم، ومخطئون في حرصهم، يعيشون ـ وأسفاه عليهم ـ في الدنيا عيشة الفقراء، ويحاسبون يوم القيامة حساب الأغنياء، فهم قد أسرفوا في شُحِّهم، وفَرَّطوا في جَنْبِ ربِّهم وأُمَّتِهم وأهلهم، تساقطت من حولهم قلوب جميع من عرفهم في خريفٍ مُبَكِّرٍ من دنياهم قد أصاب فصول عُمُرِهِم المُقْفِر.

إن تلك الأرغفة الآيلة إلى بطون غيرهم لا محالة، من ذوي القربى أو ربما من عامة الناس، قد تكون لهم نجاة من لظى سوء ما أتوا به من مشين الذنوب، وحتى من حالق الكبائر، لكنهم قوم تكاد تحسبهم لقبح بخلهم من ذوات الأربع كأنهم لا يعقلون، وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعبد عابد من بني إسرائيل، فعبد الله في صومعته، ستين عامًا، فأمطرت الأرض، فاخضرت، فأشرف الراهب من صومعته، فقال: لو نزلت فذكرت الله، لازددت خيرًا، فنزل ومعه رغيف أو رغيفان، فبينما هو في الأرض، لقيته امرأة، فلم يزل يكلمها وتكلمه، حتى غشيها، ثُمَّ أغمي عليه، فنزل الغدير يستحم، فجاءه سائل، فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين، أو الرغيف، ثُمَّ مات فوزنت عبادة ستين سَنَةٍ بتلك الزَّنْيَةِ، فرجحت الزَّنْيَةُ بحسناته، ثُمَّ وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته، فرجحت حسناته فغفر له**»[3].

إن المرء لا يكاد يفقه كيف يجتمع في المسلم إيمان وبخل، فالأول يفوح عطرًا، والثاني ينفث كيرًا، والإيمان يعزز ثقافة التضحية، والبخل تتآكل معه أطراف اليقين الهشَّة، لقد كان من المشركين العرب من هو على سخاء محمود، حيث لم

(١) هَادَتْهُ: بذلت له الهدايا تقرُّبًا.

(٢) عياض بن موسى اليَحْصُبِيُّ: «الشّفا بتعريف حقوق المصطفى»، (٩٢).

(٣) ابن حبان: «صحيح ابن حبان»، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، ذكر الخبر الدال على أن الحسنة الواحدة قد يرجى بها للمرء، حديث: (٣٧٩).

يمنعه كفره بالله، وعبادته لوثن من تمر أو خشب أو حجر؛ عن إطعام الطعام، وإغاثة الملهوف، وحمل الكَلِّ، وسقاية الحجيج، وفك العاني، فكيف يتفق لمسلم يؤمن بأن الأرزاق مقدرات، وأن الطير تغدو خِمَاصًا وتعود بِطَانًا أن ينام على شُحِّهِ التَّتِنِ، تاركًا من ورائه رَحِمًا جائعًا، أو جارًا عاريًا، أو مستجيرًا غارمًا.

لقد كان أهل الجاهلية العمياء وهم العاكفون على تقديس أوثانٍ وضيعةٍ يُسَفِّهُونَ بعبادتها أنفسهم، يترفَّعون عن وجود جائعٍ أو عارٍ أو سقيمٍ ذي فاقةٍ فيما بينهم، فَيَهبُّونَ في مظهرٍ حميدٍ يتعاضدون في سبيل إغاثته، فكان ابن جدعان ـ على سبيل المثال ـ عنده صحافٌ تُعْرَضُ كل صباح للفقراء، وقد امتلأت بالبُرِّ والسمن والعسل، وفيهم يقول أُمَيَّةُ بن السَّلطِ مادحًا وقد حُقَّ لهم حُسْنُ الثناء[1]:

قَومي ثَقِيفُ إِن سَـأَلتَ وَأُسرَتي

وَبِهِم أُدافِعُ رُكنَ مَـن عاداني

لا يَنكِتونَ الأَرضَ عِندَ سُؤالِهِم

لِتَطلُـبَ العِـلَّاتِ بِالعيـدانِ

بَل يَبسُطونَ وجوهَهَم فَتَرى لَها

عِندَ السُؤالِ كَأَحسَنِ الأَلـوانِ

قَـومٌ إِذا نَـزَلَ المُقِـلُّ بِأَرضِـهِم

رَدّوه رَبَّ صَـــواهِلٍ وَقيـــانِ

وَإِذا دَعَـــوتَهُم لِـــكُلِّ مُلِمَّـــةٍ

سَدُّوا شُعاعَ الشَمسِ بِالفُرسانِ

إن حاسد البخلاء على ما كَنَزُوا من مالٍ أحمقُ لأنهم قد دفعوا مقابل طَمْرِهِ في أحضانهم أَنْفَسَ ما يملك الإنسان من محبَّة الله والخَلْقِ له.

فهم فقراء إلى مَلْبِسٍ ومَطْعَمٍ ومَسْكَنٍ كريم، وهم ـ في الوقت نفسه ـ فقراء قد مَسَّهُم ضَنْكٌ من وحدةٍ يفرضها عليهم كل من ابتلاه الله بوجوب مخالطتهم من زوجة وأبناء وغيرهم من المنكوبين بوجوب معاشرتهم فرج الله عنهم أجمعين.

إنهم باختصار جدًا سيوارَون الثَّرى عَرَايا، والمال السجينُ سَيُطْلَقُ سراحه وتُسْبَرُ الخَبَايا، ويُحَالُ إلى مستحقِّيهِ من البرايا.

## هذا ما قاله لي جَدِّي.. لكن بيني وبينك

ما زال رَجْعُ صدى صوته قِبْلَةً لي لا أَضِلُّ إذا ما يَمَّمْتُ وجهي نحوها أبدًا...

حفيدي الحبيب:

اعْلَمْ أن المَعْرُوفَ في البَخِيل ضائعٌ، والمديحَ له مَجْلَبَةٌ للذَّمِّ، وتزكيَتَهُ أمام النَّاس بابٌ عريضٌ للابتلاء، وترقيته إفقارٌ للخَلْقِ، والبعدَ عنه غَنِيمَةٌ، ومعاملتهُ استثمارٌ خاسرٌ، وغِنَاهُ كَسْرٌ للخواطر وتعطيلٌ لرأسِ مالٍ ما أعوزَ الأُمَّةَ إليه، وصدقَتَهُ مَنٌّ وأَذَى.. واعلم بُنَيَّ أن المنفعةَ من البَخِيل مُقْتَضَبَةٌ بترويحٍ يصيبُ النَّفس عند ذكر

(١) عائض القرني: «خلق المسلم»، (٤٦).

عجائب هواجس شُحِّهِ، وغرائب مسوِّغات بُخْلِهِ.

نعم يا جَديَّ طيب الله ثراك... بالتَّجرِبَةِ وَحدَهَا تَعَلَّمتُ: أن البَخِيل فينا عالةٌ علينا، نلقاه في السرَّاء خِلًّا ماهرًا في اصطياد عيوب المغلولةِ أيديهم إلى أعناقهم، يَصْرِفُ بغيبتهم الشُّبهة عن نَفْسِه، وفي الضرَّاء تزداد شهيته على أكل لحوم المبْسُوطَةِ أياديهم كلَّ البَسْطِ لينجو من خلال الطَعْنِ بهم من بذلِ بعض دراهمَ معدوداتٍ مُتَعَفِّنَاتٍ قد يضطر ـ لا سمح الله ـ أن يُخْرِجَهَا من جيوبه الصَّدِئة.

إن البُخْل عيبٌ مَشِيْنٌ، وأربابهُ ذوو عاهاتٍ مُسْتَديمةٍ، وإن مقابلة تَقْتيرِهِمْ بِحَجْبِ سخائنا عنهم تَمَثُّلٌ وضيعٌ بهم، وإن اليد العُليا خيرٌ من اليد السفلى.

# رؤية تحليلية ـ القيم الإنسانية والسياسة بين النظرية والتطبيق

## على خلفية الأحداث الأمريكية والفرنسية سنة ٢٠٢٠م

**الأستاذ: نبيل شبيب**
كاتب وإعلامي سوري

عناصر الموضوع: (١ـ مقدمة ٢ـ انتهاك قيم إنسانية ٣ـ ترامب وماكرون نموذجان ٤ـ التعامل مع الحدثين في الميزان ٥ـ وقفة فلسفية ٦ـ بين الحق والقوة ٧ـ الحصيلة)

### مقدمة:

تزداد الضغوط على جنس الإنسان تحت وطأة الجناح المادي في الحضارة الغربية في عالمنا المعاصر، وتكشف الضغوط عن تناقضات صارخة، محورها الانفصام بين الطرح النظري والواقع التطبيقي في ميادين القيم والمبادئ. هذا ما استفحلت أضراره التي تصيب نسبة عالية من البشرية، داخل العالم الغربي نفسه وفي نطاق هيمنته عالميا. واستفحل أيضا تشويه مظاهر النجاح الحضاري المطّرد، علميا وتقنيا وماديا، علما بأن ما نعايشه من إنجازات في عصرنا الحاضر ليس من صنع المسار الحضاري المادي الحالي وحده، بل هو حصيلة تراكم منجزات بشرية في حلقات متعاقبة من دورة الحضارات، كان يبني اللاحق منها دوما على ما سبقه ويضيف المزيد إليه غالبا.

أما التناقض الأخطر القائم فهو **تفاقم الخلل في ميادين العلاقة الفعلية بين هذه «المنجزات» وواقع «الإنسان»**، وهو ما نعبر عنه غالبا بكلمة «الهوّة» الفاصلة بين ثراء وفقر، وصحة ومرض، وعلم وجهل، واستقرار وتشريد، وانتشار المظالم العشوائية بلا ملاحقة ولا محاسبة، مقابل وجود ضوابط تقنينية وقضائية بنتائج متفاوتة، وهكذا.

في سنة٢٠٢٠م كشفت انحرافات التعامل السياسي مع جائحة كوفيد ـ ١٩ من جهة عن تغييب جوهر قيمة الإنسان حضاريا، ومن جهة أخرى عن هشاشة البنية الهيكلية للإدارة والإنتاج في الجسد المادي والتقني المعاصر. كما انكشف بالتزامن مع ذلك عمق الثغرة الفاصلة بين النظرية والتطبيق على صعيد القيم بمختلف ميادينها وتسمياتها، وهذا من خلال أحداث لا يستهان بأهميتها، تجسدت في تطورات متتابعة في الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا على وجه التخصيص.

والسؤال: **هل توجد وسائل ناجعة لتضييق الفجوة، إن لم يكن ردمها، بين التنظير للقيم**

**الإنسانية من جهة وتطبيقها من جهة أخرى، للحد من النواقص والنتوءات الظاهرة في البنية الحضارية المعاصرة، وهي قائمة على رؤى سياسية «علمانية» وممارسات «حداثية»، تضبطها أو المفروض أن تضبطها آليات دستورية ومؤسساتية «ديمقراطية»؟**

هذا ما تتطلع هذه الرؤية التحليلية إلى التمهيد له بمحاولة استيعاب ماهية المشكلة التي تطرح نفسها بقوة على أرض الواقع، على أمل أن تجد محاولات للعلاج، نظريا عبر الدراسات والبحوث والمؤتمرات المتخصصة، وعمليا من خلال آليات عمل تنبثق عن خطط مدروسة وجهود منظمة هادفة.

## انتهاك قيم إنسانية:

إن الحديث هنا لا يدور حول مظالم همجية من صنع الاستبداد، وُلدَت نتيجة التسلط المحلي والدولي على الشعوب وأوطانها وثرواتها، من خلال أنظمة محلية وشبكات علاقات دولية، تستهتر بكل مرجعية دستورية محلية، أو مرجعية قانونية شاملة للأسرة البشرية. إنما يدور الحديث حول الانحرافات التي أبرزتها أحداث عديدة في دول تقول إنها ديمقراطية حداثية متقدمة، وتطلق على نفسها وصف «العالم الحر»، وتعتبر نفسها الرائدة لسواها على هذه الأصعدة.

أبرز تلك الأحداث ـ عند كتابة هذه السطور قبيل رحيل سنة ٢٠٢٠م ـ ما كان من تصعيد مثير في مشهد جديد من سلسلة مشاهد مشابهة سابقة في الولايات المتحدة الأمريكية. وهنا يركّز الطرح السياسي والإعلامي في متابعة التطورات على شخص دونالد ترامب والتعامل مع الانتخابات الرئاسية. وقد تزامن ذلك مع تصعيد مثير أيضا في فرنسا. وهنا يركز الطرح السياسي والإعلامي أيضا على شخص إيمانويل ماكرون حصرا.

من شأن هذا التركيز أن يحشر التطورات ومخاطرها في حدود «شخصنة» ما يحركها، وبالتالي ينتشر الاعتقاد أو الوهم، بأنّ الحدث سيمضي مع مضي الشخص المعني سواء كان ترامب أو ماكرون، كما يصوِّرها وضعا استثنائيا ضمن مسار ديمقراطي حداثي متوازن، أي يصور الأحداث وكأنها «انفرادية» عابرة، كما يُصنع مع ما يوصف بالقتل العشوائي الجماعي في مجتمعات «آمنة»، أي يكفي هنا أيضا أسلوب النظر في كل حالة على حدة حسب خصائصها وظروفها، دون البحث عن الأسباب العميقة في محاور ما تقوم عليه البنية الهيكلية للمجتمعات والدول الحديثة، أي البنية الحداثية الديمقراطية.

**إن أحداث أمريكا وفرنسا التي يحاول الإعلام حصرها بالشخص أو تصويرها أحداثا استثنائية؛ تحتاج دراسات منهجية محكمة ومتكاملة، ولا تكفيهما مقالة رأي محدودة كهذه،** وذلك باعتبار كل من أحداث أمريكا وفرنسا نموذجا عما تشهده جوانب وتطورات أخرى ـ ليست موضع الحديث هنا ـ تتعلق أيضا

بالسؤال عن وسائل ناجعة تحول دون أحداث مشابهة، وبالتالي تحول دون تفاقم الأضرار وتراكمها في اتجاه قد يسبب انهيارا خطيرا للبنية الحضارية الحالية نفسها.

في هذه الرؤية يقتصر الحديث على جانب واحد، يحدّده تعبير «القيم الإنسانية» كمجموعة ما يغلب التوافق على عناوينه الكبرى، ومن ذلك التوافق على أن صون تلك القيم يمثل دعائم تحقيق إنسانية الإنسان، وبالتالي فإن تغييبها أو تغييب بعضها، لا سيما بأساليب ووسائل قهرية، يمثل انتهاكا لإنسانية الإنسان.

إن مضامين القيم الإنسانية هذه، من كرامة وعدالة ومساواة وحقوق معنوية ومادية وحريات أساسية وما يتبع ذلك، هي في مقدمة ما يجري ذكره وتأكيد احترامه على ألسنة الساسة المعاصرين بمناسبة كاليوم العالمي لحقوق الإنسان، ودون مناسبة؛ بينما لا يكاد ينقطع مسلسل الشواهد على ممارسات سياسية في واقعنا البشري المعاصر، تنطوي على انتهاك تلك القيم انتهاكا نوعيا واسع النطاق، وكميا ضخما من حيث شموله معدلات نسبية عالية من جنس الإنسان.

## ترامب وماكرون نموذجان:

لم يعد خافيا ما كان من شواهد صارخة على انتهاك القيم الإنسانية والقوانين الدولية في تعامل الرئيس الأمريكي (السابق) دونالد ترامب (سنة ٢٠٢٠م ومن قبل) مع الاتفاقات ذات العلاقة بالقانون الدولي كالحد من التسلح النووي، والحد من عواقب التبدل المناخي، وتعامله مع أحداث داخلية كتغوّل أجهزة أمنية على فئات سكانية من غير ذوي البشرة البيضاء، أو تعطيل الحد من انتشار السلاح رغم ازدياد جرائم القتل العشوائي، هذا علاوة على ترسيخه للتفاوت الهائل في مستويات المعيشة بين قطاعات تعاني من الفقر والبؤس دون تأمينات اجتماعية، ومن المرض دون تأمينات صحية كافية، وبين المتخمين بالثراء الفاحش.

هذه السلسلة هي التي بلغت أقصى مداها في كارثة القصور المستهتر عن مواجهة جائحة كورونا، ثم في الإنكار المرضيّ لنتائج الانتخابات والاستماتة في توظيف الصلاحيات الرئاسية الرسمية لخدمة أغراض سياسية ذاتية قدر المستطاع، عبر أوامر تنفيذية وأجهزة أمنية ووزارات رسمية وحتى عبر أجهزة القضاء، وجميع ذلك مع هدر الأموال بلا حساب.

كذلك لم يعد خافيا ما كان من شواهد صارخة على انتهاك القيم الإنسانية والمبادئ العالمية في تعامل الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون مع قوانين تمس المناطق السكنية العشوائية على حساب حقوق سكانها، وتمس مستويات المعيشة العامة للمسنين المتقاعدين وسواهم من الفئات المهمّشة ماديا، وهو ما أثار احتجاجات متعاقبة أبرزها احتجاجات «ذوي السترات الصفراء»، ثم من خلال تصعيد الحملات

المتعدية على الإسلام والوجود الإسلامي مما أثار عموم المسلمين، حتى وصلت التجاوزات الرسمية ـ بمشاركة ماكرون ـ إلى العمل على اعتقال حرية التعبير عبر تقنين حظر استخدام عدسات التصوير في مراقبة الرأي العام لممارسات عناصر الأجهزة الأمنية في الشوارع والأماكن العامة، وهي في الأصل مراقبة واجبة وضرورية لضمان مسار المحاسبة القضائية عند مخالفة القوانين، وقد تكررت باستمرار.

هذا الانحراف السياسي من جانب ماكرون وبدعمه، أثار مزيدا من الاحتجاجات الجماهيرية بل والدولية لم تقتصر على الناشطين في الدفاع عن حقوق الإنسان.

إن محور الحدث في هذين النموذجين هو **تجاوز السلطة التنفيذية لصلاحياتها رغم وجود الدساتير وما ينبثق عنها، وكذلك استغلال تلك الصلاحيات لتحقيق أهداف تتناقض مع روح النصوص الدستورية والقانونية إن لم تتناقض مع نصوصها مباشرة.**

## التعامل مع الحدثين في الميزان:

مع كل التقدير لجهود منظمات وأفراد ينشطون من داخل الغرب ويمارسون واجباتهم قدر المستطاع للحد من الانتهاكات على مستوى عالمي، وليس في نطاق الغرب فقط، نرصد أن الحدثين المذكورين أثارا الاهتمام والانزعاج أكثر من سواهما، ربما لأن انتهاك إنسانية الإنسان فيهما بلغ درجة بعيدة المدى، وربما لأنه استهدف الإنسان داخل حدود «العالم الحر» على وجه التخصيص، وهذا ما يختلف بتأثيره أو من حيث التعامل الغربي معه (وفق التكوين المعرفي التاريخي للغرب) عن حالات أخرى صارخة أيضا، ولكنها تستهدف الإنسان خارج تلك الحدود، فلا تجد الاهتمام والانزعاج والاحتجاج بحجم مماثل.

هذا ما نسميه «**الكيل بمكيالين**»، وهو مما يساهم في ظهور ما نرصده من ردود فعل تنطوي من جانبنا على «الكيل بمكيالين» أيضا، أي عندما تغفل انتقاداتنا واحتجاجاتنا ما تتعرض له إنسانية الإنسان عموما من انتهاكات، وتركز على ما يتعلق بالعرب والمسلمين وبالإسلام ووجوده عالميا. والواقع أن معايير الإسلام وأحكامه ورؤيته الحضارية الإنسانية تفرض الانطلاق من عمومية إنسانية الإنسان وعمومية الواجب الذاتي لإدانة انتهاكها ومكافحته حيثما يقع، وسيان من يصيب، بغض النظر عما يصنع «الآخر» في حالات مشابهة.

**وإن «الكيل بمكيالين» من الطرفين يعني تجاهل المشتركات النظرية بين الرؤية الذاتية ورؤية الآخر في ميدان القيم الإنسانية، وبالتالي تغييب قابلية التواصل والتلاقي بين من يعترضون على تلك الانحرافات من داخل المجتمعات الغربية نفسها ومن خارجها.**

فيما يتعلق بموضوع الحديث هنا، تنطوي

حصيلة الانتقادات الذاتية المتعلقة بالنموذجين الأمريكي والفرنسي المذكورين أعلاه، على «تشخيص» وجود خلل في أنظمة أو مناهج، غربية النشأة، كالعلمانية والديمقراطية والرأسمالية، مع العلم أنها هي الأعمدة الثلاثة التي تقوم عليها البنية الهيكلية لدولة حداثية غربية، وإن تفاوت التأكيد والتشدد أحيانا على بعضها دون بعضها الآخر، ما بين دولة ودولة.

محور الانتقادات في هذا التشخيص هو القول إن **منظومة القيم من حقوق وحريات ومبادئ، موجودة نظريا، ولكن لا تمنع في تركيب البنية الهيكلية للدولة الحداثية الغربية بالذات من وقوع انتهاكات صارخة لإنسانية الإنسان.**

ونرصد بالمقابل ما يتردد داخل نطاق المجتمعات ذات الغالبية المسلمة من مواقف تتناقض مع هذه الانتقادات والاعتراضات. من الأمثلة عليها بالنسبة إلى النموذج الأمريكي، مواقف تدعي الحرص على تحقيق مصالحنا وأهدافنا لتبرير المطالبة بواقعية مزعومة، تستدعي التكيف أو حتى التبعية لما تصنع الدولة الأمريكية الكبرى عالميا، وإن انطوى على الظلم والانحراف، بذريعة أنه لا يمكن لنا دون هذا السلوك الانهزامي أن نحقق هدفا كريما.

ومن الأمثلة على تلك المواقف التعميمية بالنسبة إلى النموذج الفرنسي، المطالبة الغريبة برحيل المعترضين على السياسات الفرنسية عن فرنسا، بدلا من معارضة ممارساتها وقوانينها، وكأن المسلم الفرنسي المعارض ليس مواطنا فرنسيا!

**المواقف المذكورة أمثلة محدودة على ما يصدر عموما عمّن يبالغ في الدفاع عما يتبنى الغرب نشره عالميا من مناهج تغلب عليها الصبغة «الإيديولوجية»، هذا** مع إنكار المعترضين وجود تلك الصبغة أصلا في تركيبة المناهج الغربية عمومًا.

الواقع أن كثيرا من التصورات الاجتهادية الوضعية التي نشأت في الغرب، يحمل في صيرورته إرثا معرفيا ثقيلا من ادعاءٍ استعلائي لاحتكار الصواب. وكانت تلك التصورات الوضعية عند نشأتها الأولى في عصر التنوير ترفض هذا السلوك لاحتكار الصواب، والمتجذّر في ممارسة الإملاءات العقدية، الكنسية وغير الكنسية، في العصور الغربية الوسطى وما قبلها.

ولكن مسارات العلمانية والديمقراطية والليبرالية (الرأسمالية) شهدت لاحقا انحرافات التشدد الصادر عن توجهات حداثية ناشئة في وقت متأخر نسبيا. وهنا انفصمت صلة تلك المناهج بالفكر التنويري لحساب الفكر الحداثي، فأصبحت كأنها وليدة فكر «إيديولوجي» متعصب، بغض النظر عن استمرار رفض الإيديولوجيات «الأخرى».

**المفروض هو عدم التردد في وصم سياسات التعصب والتحجر والانحراف بما هي جديرة به،**

**سواء كانت غربية أم لم تكن**، وبدلا من ذلك تتركز مواقف أبناء أمتنا على محورين اثنين خاطئين هما:

(١) ضرورة تخلصنا نحن من الإيديولوجية في فكرنا وسلوكنا، وغالبا ما يكون المقصود هو عدم الانطلاق من الوحي الرباني مصدرا للعقيدة والفكر والتوجيه.

(٢) مقولة إن نهوضنا لا يتحقق دون تحقيق شرط الحداثة كما عرفتها أوروبا، وغالبا ما يكون المقصود هو الحداثة الإلحادية.

## وقفة فلسفية:

إن استحضار ما ينبني على ذلك ضروري لتحديد الموقف الأصوب من أحداث أمريكية وفرنسية، مع إدراك أنه موقف من واقع معاصر لدول «حداثية».

لهذا تتطلب متابعة الحديث وقفة فكرية فلسفية عند العلاقة بين محطات التنوير والحداثة والإلحاد ومسارات النهوض. هذا مع الحفاظ على جوهر البحث في هذه الرؤية التحليلية، إذ يدور حول العلاقة بين أطروحات سياسية نظرية، تعتبر البنية الحداثية الديمقراطية الراهنة وضعا مثاليا، معبرا عن منظومة القيم من حقوق وحريات، وما يعنيه ذلك تجاه افتقار تطبيق تلك المنظومة إلى تحقيق ما تقتضيه إنسانية الإنسان دون تمييز أو استثناء.

واستحضار ما سبق ذكره حول القيم الإنسانية والإلحاد الحداثي، ضروري أيضا على خلفية إعداد هذه الرؤية للنشر في مجلة «مقاربات» الصادرة عن جهة إسلامية معتبرة هي المجلس الإسلامي السوري. هنا يحسن التنويه إلى أن المقارنة في إطار عناوين القيم الإنسانية الكبرى، كالكرامة والعدالة والمساواة، تكشف عن وجود مشتركات نظرية عديدة، ما بين منظومة القيم المستمدة من الوحي الرباني أو الاجتهاد المبني عليه، وبين ما يقابلها من مبادئ ومُثُل وجدت طريقها إلى مواثيق وضعية، توصف بالحداثية أحيانا.

هذا التنويه لا ينفي وجود اختلافات يصنعها فارق الانطلاق من الإيمان بالوحي عن الانطلاق من إنكاره. إنما لا داعي هنا للتوسع في تعليل الاختلافات بحقيقة تباين المنطلق العقدي والفكري، وبالتالي بموقع العاقبة الأخروية بين إيمان وإنكار، وتأثير ذلك على ما نعرفه تحت عنوان «الوازع الداخلي»، كما هو الحال مع سائر الغيبيات.

الفلسفة بحد ذاتها علم من العلوم الإنسانية له ضوابطه المحكمة، ولكن الحديث يدور هنا حول تصورات وتوجهات فلسفية، أصاب بعضها وأخطأ بعضها أو انحرف، ومن ذلك ما ساهم في تبرير انتهاك إنسانية الإنسان.

المنطلق الفلسفي ضروري لاستيعاب ما يجري في دولة حداثية غربية حاليا، والحد الأدنى من ذلك أن نميز بين كلمتي «التنوير» و«الحداثة» في

المسارات الفلسفية الغربية من جهة، وأن نميز من جهة أخرى غياب الدقة العلمية فيما ينقل من أطروحات فلسفية غربية إلى مجتمعات مرتبطة تاريخيا بالدائرة الحضارية العربية الإسلامية، لا سيما مجتمعات المنطقة العربية، ومن ذلك ما يتعلق بالفلسفة الحداثية وما واكبها من إلحاد، والقول إن ذلك كان مفتاح النهضة الأوروبية، وبالتالي ينبغي سلوك طريق مماثل لنحقق نهوضنا. هذا غير صحيح تاريخيا.

(١) إذا كان الإلحاد موجودا منذ العصور القديمة بمعنى إنكار وجود إله خالق للكون، فمن المؤكد أن ربطه بفلسفة حداثية معاصرة قد جاء متأخرا. ولا مجال للترويج أن النهوض العلمي المادي منذ زهاء أربعة قرون قد ارتبط بتبني فلسفات إلحادية، فقد ظهرت قبل قرنين أو أقل، مثل الوجودية التي أسس لها سورين كيركغور الدانماركي في القرن الميلادي التاسع عشر، وطوّرها وزاد عليها جان بول سارتر في القرن الميلادي العشرين، ومثل المادية الجدلية والحتمية التاريخية مما طرحه هيجل وطوره ماركس من بعد عبر القرن الميلادي العشرين أيضا، وجميع ذلك وأشباهه كان بعد أن وقفت النهضة المادية الحديثة في أوروبا على أقدامها.

(٢) بالمقابل ظهرت مع بداية النهضة الأوروبية مسارات فلسفية طرحت على صعيد الإنسان والعقل والمعرفة والحقوق والحريات ما لا يبتعد كثيرا عما يطرحه الوحي.

(٣) من ذلك أطروحات الفلسفة الإنسانية في القرن الميلادي الرابع عشر، ولم تعرف «الإلحاد» الحداثي، وكان منطلقها الجغرافي إيطاليا، ومحورها الموضوعي تحرير التعليم من احتكار «السلطة الكنسية» له تحت عنوان «العلوم السبعة».

(٤) ومن ذلك أطروحات فلسفة التنوير في القرن الميلادي الثامن عشر (أشهرها: المعرفة / إيمانويل كانط الألماني، والحرية / فرنسوا فولتير الفرنسي، والعقد الاجتماعي / جان جاك روسو الفرنسي أيضا) ولم تطرح الإلحاد الحداثي.

(٥) واقترن ذلك ببدايات مسيرة النهضة العلمية التقنية باختراعات واكتشافات في فترة مبكرة نسبيا، ويرى بعض المؤرخين بدايتها عام ١٦٨٧م (كتاب الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية لإسحق نيوتن) ومنهم من يعود ببدايتها إلى عام ١٤٥٣م، عام «سقوط» القسطنطينية ـ إسطنبول حاليا ـ، ومن محطاتها اكتشاف الجاذبية واختراع الطباعة واكتشافات فلكية خالفت ما كانت تشمله الإملاءات الكنسية.

(٦) ما يسري على الإلحاد الحداثي وعدم إسهامه في «النهوض» يسري على ما يوصف بالبراجماتية، وهنا لا تصح الترجمة الشائعة: «الواقعية»؛ فهي تختلف عن مقتضيات الفلسفة الواقعية المجردة، بأنها فلسفة «نفعية أنانية»، ويقول معجم «أوكسفورد» في تعريفها، إنها تضع السلوك فوق مراعاة العقل، أو القانون، أو الحقائق،

أو الأفكار والنظريات سارية المفعول، التي تقاس قيمتها فقط بمعيار تحقيق النجاح. وقد نشأت هذه الفلسفة في أمريكا الشمالية أواخر القرن الميلادي التاسع عشر، وكان من أبرز الفلاسفة المنظرين لها تشارلس ساندرس بيرس ووليام جيمس. ويمكن اعتبار السياسات الأمريكية منذ ذلك الحين تطبيقا مباشرا لها.

إن الانحرافات الحداثية عن أطروحات فلسفة التنوير، هي التي جعلت فيلسوف «ما بعد الحداثة» الفرنسي ميشيل فوكو يطلق مقولته الشهيرة «*إن الأنوار التي خلقت الحريات هي التي خلقت السلاسل والأغلال أيضا*»، وكلمة الأنوار عنده تعني فلسفة التنوير وتشمل انحرافها لاحقا عبر فلاسفة الحداثة بعد حوالي قرنين من نشأتها الأولى، فليست «دعاوى الحداثة» جديرة بالإشادة كما يصنع بعض الفلاسفة العرب المحدثين، ومثال ذلك ما ينقله الكاتب السوري فواز حداد في مقالة له في «العربي الجديد» يوم ٤ / ٨ / ٢٠٢٠م بقوله: *(دعاوى الحداثة كانت صدى لطروحات المفكرين والفلاسفة، أحبطها انتشار آليات التدجين والمراقبة السلطوية)*.

## بين الحق والقوة:

ليست «الفكرة» هي التي تمارس «انتهاكا» لإنسانية الإنسان وإنما هو السلوك العملي، ومن أشكاله التعصب وزعم احتكار الصواب، وهذا أقرب تفسير لكلمة «إيديولوجيا» فلا يصح ربط الكلمة بالتعصب للعقيدة فحسب، والأهم من ذلك سلوكيا هو اعتماد القوة وسيلة لتحقيق أهداف نفعية أنانية على حساب «الآخر»، وإن كانت حقوق «الآخر» معروفة وظاهرة للعيان.

هنا نتجاوز الأرضية الفكرية التأصيلية لمعالجة انتهاك إنسانية الإنسان في الحدثين النموذجين الوارد ذكرهما آنفا، وننتقل إلى انتقادات واعتراضات تناولت «أعراض» المشكلة. وسرعان ما يبدو للوهلة الأولى وجود حجة منطقية عند من ينوه بمفعول دولة المؤسسات في تصحيح الأخطاء والانحرافات، وهي كفيلة بهذا المنظور أن تضع حدا لمن يتجاوز حدوده، مثل ترامب وماكرون.

هذه مقولة سليمة نظريا، ولكن لا تسري على المثالين المذكورين في الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا، فليست الانحرافات هنا «فردية» لتقوّمها المؤسسات، بل هي انحرافات مؤسسات، فكل من ترامب وماكرون يمثل في نظام بلده الرئاسي الديمقراطي **مؤسسة السلطة التنفيذية** بصلاحيات واسعة النطاق دستوريا.

كذلك قد نجد حجة منطقية للوهلة الأولى في القول إن الدورات الانتخابية كفيلة بالتخلص السلمي الضروري من الانحرافات. وهذه مقولة صائبة أيضا من حيث الأساس، ولكنها لا تعالج الإشكالية إلا جزئيا، فمع كل الحرص على أهمية اتباع الأسلوب السلمي في تداول السلطة، يظهر

للعيان في المثالين المذكورين أن من يريد البقاء في السلطة هو الذي يوظفها ـ وهي سبب أساسي من أسباب القوة ـ فيمارس العنف «السياسي» بأشد صوره ضد من يبدو له أنه عقبة في طريقه.

**إن محور إشكالية القيم الإنسانية وموقعها سياسيا، في الحدثين الأمريكي والفرنسي، هو تغليب مفعول القوة على مفهوم الحق ومغزاه بمختلف المعايير.** فالمؤسسة الرئاسية في كل من البلدين تتصرف بقوة الصلاحيات السياسية التي حصلت عليها دستوريا كسلطة تنفيذية، وتضع في حساباتها أن يقع انتهاك إنسانية الإنسان، وهذا عن علم بذلك، انطلاقا مما يقال رسميا عن مكانة حقوق الإنسان وحرياته.

وتتضح معالم المعضلة بالرجوع إلى جذور نشأة منظومة القيم الإنسانية في الغرب عموما، فهي حسب مؤرخيه وليدة أتون الصراع عبر حرب الاستقلال الأمريكية وأتون الصراع عبر الثورة الفرنسية، أي كانت القيم نفسها حصيلة استخدام القوة. لهذا أصبحت الممارسات التطبيقية أيضا تدور حول مقولة: (الحقوق والحريات تنتزع انتزاعا)؛ أي لا بد من استخدام القوة لتحصيلها، وهنا يرتبط تحصيل الحقوق بأن تمتلك الفئات الأضعف اجتماعيا وسياسيا كالعمال والنساء والفقراء والمسنين أسباب القوة اللازمة لخوض جولات الصراع مع من يملك زمام تحويل «حقوقهم» من الكلام عنها إلى واقع يعيشونه.

هذا خلل في التفكير والتطبيق، فعلى أرض الواقع نجد أن المحروم من حقوقه محروم أيضا من أسباب القوة لتحصيلها. بل نعايش نتائج هذا الخلل في واقع عدم تحقيق أهداف أساسية على مدى قرنين وأكثر من خلال حركات «تحرير» المرأة، بل ظهرت العواقب في نتائج عكسية، وشبيه ذلك ما نستخلصه من جولات أجور العمال وشروط العمل، وظهور نتائج عكسية منها أيضا، من معالمها استمرار تفاقم هوة الفقر والثراء داخل المجتمعات الغربية المعنية.

## الحصيلة:

الحصيلة بإيجاز:

لا يمكن أن يكون للحديث عن القيم الإنسانية مفعول تطبيقي في واقع حياة الإنسان ومعاملاته دون تحقيق شروط أساسية محورا لبنية سياسية ودستورية قويمة، ونجد فيما قرره الوحي في الدين الإسلامي ما يكفي من المنطلقات لصياغة تلك الشروط، ومنها ما يوصف بالثوابت، ومنها ما يحتاج استخلاصه إلى اجتهادات تشريعية وفقهية، متجددة، لبلورة منظومة قابلة للتطبيق والمراجعة والتطوير باستمرار بما يواكب سرعة تقلب المعطيات والمتغيرات في عصرنا الحاضر.

ومن الأمثلة على الشروط المشار إليها:

١ـ تشكيل الأسس المعتمدة في أي دولة، لا سيما النصوص الدستورية وما يسمى «العقد الاجتماعي»، على قاعدة أن الحقوق الفردية

واجبات مجتمعية جماعية، فلا يكفي أن يخاطب المحروم منها لإنهاء حرمانه بنفسه، بل ينبغي للدستور والقانون أن يوجب على المجتمع وأن يفرض على سلطات الدولة مالكة القوة، ممارسة العمل القضائي والتشريعي والتنفيذي، لإزالة الحرمان ومنع الانتهاكات.

**وهذا بالمنظور الإسلامي من قبيل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ومن قبيل فروض الكفاية.**

٢ـ إن كلمات النصوص ذات العلاقة بالقيم الإنسانية لا تحولها إلى معايير معتمدة في الحياة العملية، ولا تعطيها قوة ذاتية بحيث تدفع الأفراد والمؤسسات إلى الالتزام بها في المسارات السياسية وسواها، ما لم تتحقق فيها «صناعة الإنسان»، فلا بد أن تقترن النصوص بمناهج ومشاريع تأهيلية للفرد وتنموية للمجتمع، وملزمة لكل من يعمل في تكوين المواصفات الشخصية للفرد، بدءا بدور التربية والتعليم، مرورا بمراكز البحث والتنمية والتأهيل والتطوير، انتهاء بصياغة المشاريع في نطاق مسؤولية الدولة بسُلُطاتها المختلفة عن المجتمع وأفراده.

**وهذا بالمنظور الإسلامي من قبيل ربط أداء الواجب وتجنب التعدي على الآخر بتكوين الوازع الداخلي فرديا واعتباره جزءا من صياغة التشريعات التقنينية وتطبيقها على مستوى المجتمع.**

وزيادة التفصيل في هذا تحتاج إلى طرح فكري وفقهي تأصيلي في دراسات محكمة وبحوث منهجية مع التخطيط لها عبر مراكز البحوث والدراسات، ومواكبتها بسلسلة من المؤتمرات الهادفة، كما هو الحال مع الحاجة إلى شبيه ذلك في متابعة سائر القضايا الأساسية المعاصرة، المشابهة للقضية التي تطرحها هذه الرؤية التحليلية الموجزة حول الجمع بين النظرية والتطبيق في الحفاظ على إنسانية الإنسان وما ينبثق عنها من قيم وحقوق وحريات وواجبات ومسؤوليات.

ولله الحمد من قبل ومن بعد.

# المعلم بين الكتاب المنظور والكتاب المسطور

د. عبد الجواد حردان

مدرِّس أصول الفقه في كلية الإلهيات، جامعة صوتجو إمام كهرمان مرعش

## دلالات ﴿اقْرَأْ﴾ في الفكر التربوي:

أوَّل ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] فما سرّ حديث هذه الآيات حينئذٍ في سياقٍ واحد عن كلٍّ من القراءة والكتابة وأدواتهما، والعلم والتعليم والتعلُّم، والخالق وصنعته، والمخلوق ونشأته، والربّ العليم وصفاته، والمعلَّم وأحواله (**إنسان: لا يعلم شيئًا، عُلِّم ما لم يكن يَعْلَم؟**) وإلام يشير عموم لفظ ﴿مَا﴾ الدال على مخرجات العملية التعليمية؟

وعلامَ يدل هذا الأمر ﴿اقْرَأْ﴾ والمخاطَبُ أميٌّ لا يكتب ولا يقرأ نشأ في أمةٍ أميَّة لا تكتب ولا تحسب؟ ثم تتابع الوحي بهذا الأمر فألقى في روعه أنِ: ﴿اقْرَأْ﴾ وكان الجواب: (ما أنا بقارئ). ثم ثانية ﴿اقْرَأْ﴾ و (ما أنا بقارئ). وثالثة ﴿اقْرَأْ﴾ و(ما أنا بقارئ).

تُرَى ماذا عليه أن يقرأ ـ وما هو بقارئ ـ أيتلو كتابَ الله المسطور أم كتابَ الكون المنظور؟ وإذا كان على المخاطَب ـ بوصفه فردًا يمثِّل أمةً ـ أن يقرأ أحد هذين الكتابين ليتخذ منه مرآة يتراءى له فيها الكتاب الآخر؛ فهلا اهتدت مؤسسات التعليم اليوم بمعالم هذا النور، وهُرِعت إلى تفسير أحد الكتابين بالآخر تفسيرًا لا يبقي على التخلف ولا يذر، ويُسهِم في صناعة حضارة أمتنا وحماية هويتها إسهامًا يجعل يد أمتنا هي العليا المعطية لا السفلى المستجدية.

وعلام تدلّ هذا المخلوقَ قراءتُه المزدوجة باسم الخالق؛ أفتدلُّه على ربوبيّة من خلقه وعلَّمه فأحسن تعليمه، أم أنها كغيرها من القراءات البتراء تجعله يقبع في عبودية ذاته وسردابها المُظلِم ونكرانها أو إنكارها المجحف لمخرجات تلك القراءة ودلالاتها على ما وراء الطبيعة؟

وإلامَ دُعِي المعلِّم في هذه الآيات؛ أَلِيَكون الأكرم بتخلقه بأخلاق من علَّم الإنسان بالقلم مِن حلم وصفح وحكمةٍ أم ليصبح الفَظَّ الأشأم بإعراضه واستغنائه عن هذا الخلق العظيم أثناء أدائه لرسالته؟

## اتساع مفهوم دلالة الخطاب باختلاف المخاطَب والعصر:

هذه الآيات خطاب للأمة في شخص نبيها

ﷺ، وقد كانت من قبلُ أمةً أمية لا تحسب ولا تكتب، إذًا إلامَ كانت هذه الآيات تدعو نفرًا من الأميين في عصر الجاهليين؟ وبم كانت تأمرهم في أول أمرها وهم لدعوى الآمر منكرون؟

إن في مطلع سورة القلم إيماءً إلى المعنى التالي: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] ففيها إشارةٌ إلى جهلهم البسيط اقترنتْ بذكر نعمة التعليم الذي ما كان ليكون لولا منة الخالق على الإنسان بوسائل الإدراك ومزايا الخلق العظيم، وبها مجتمعةً اكتملت شروط قراءتهم يومئذٍ بعمقٍ معلوم استنقذوا أنفسهم بفضله من براثن الجاهلية وعقائدها المستهجنة المسرطنة للعقل ووسائل الإدراك التي بها تتحقق القراءة المثمرة.

واليوم كم وكم اتسعت ما صدقات الأمر بالقراءة! إنه اتساعٌ يُلزم أهل الرواية والدراية منا أن يفقهوا الهدي الرباني في كتاب الله المسطور والمنظور فقهًا جديدًا تستشرف به أجيالنا الحضارةَ الموعودة، فبمثل هذا الفقه تبنَى نهضتنا المنشودة ومستقبلنا المنظور، وهو فقه جليل القدر يكشف لآخَرين كنَّا نحسبهم منَّا أننا بالسيف أم بالقلم اهتدينا، ويقف بهم على حقيقة أمرنا وأننا بالقراءة المعمَّقة أم بالجهالة المقنَّعة قُدْنا وسُدنا؟

هذا وأمَّا روَّاد الحقيقة المتوسِّمون لمعالم هذا النور المبين على هدي تلك القراءة الشارحة فإن لهم في سورة العلَق والقلم والفرقان والنور بيانًا يفي ويشفي، ودلالات جديرة بالدرس والقراءة الأفقية الطولية والعرضية في تطواف بلا حدود في آفاق الكتاب المنظور.

## التمثيل البياني لدلالات اقرأ:

لدلالة (اقرأ) في الفكر التربوي الحديث خطوط وخيوط لن تُخطئها عيناك وأنت ترصد مدخلاتها ومخرجاتها في الفكر التربوي الإنساني، فهي قراءة شارحة تستند إلى الكتابين المنظور والمسطور، وتقوم على الأصلين أصول الفقه وأصول الدين، وتتبنى المنهج التراثي وإيجابيات التفسير الحداثي على ما فيه من تيهٍ وضبابٍ مريب.

إنَّ الذي يُشجيك ويُعجبك وتَعجب له من الجمع بين المنهجين في هذه القراءة أنّ ما تقرؤه في دلالات «اقرأ» من أصالةٍ وتنوير في ضوء الأصلين وهدي الكتابين يستنهضك للإسهام في تحقيقها بأن تكون أنت أيها المعلم نجمًا في كوكب علميٍّ ينير الثقوب المظلمة في أذهان المتعلمين ويهيئ لإعداد أفراد وهيئات متخصصة لتحقيق ذاك الهدف العظيم على أن يتمتع كل منهم بخبرات واسعة، ولا يحده أفق ضيق ولا عصبيات قومية أو دينية.

وبعدئذٍ تنبعث أنت ومن معك من بناة الإنسان لتترجموا دلالات اقرأ السابقة في مؤسسات باسقة، تجوب القارّاتِ بهمّةٍ فتيةٍ لا تفتر، آمَنوا بقضية أمّتهم، واستلهموا تجربتهم النموذجيّة مما

خصَّهم به فقههم لهذه الدلالات مِن رُؤى ووَمَضات بارقة استنزلَتْ من سماء (اقرأ) ما رقَّ وراق.

> بُنيت العمليّة التعليميّة في «اقرأ» على ثلاث «المتعلِّم والمعلِّم والمنهج»

### منظومة اقرأ:

في دلالات (اقرأ) يتقدّم المعلّم والمتعلِّم أركانَ العمليّة التعليمية بل كأنّه لا ثالث لهما، أمّا القلم وصفحات الكون فوسائل تعليمية لا غنى عنها، وفي فلك هذه الدوائر الثلاث تدور دلالة (اقرأ) في الفكر التربوي المعاصر والأصيل.

بُنيت العمليّة التعليميّة في «اقرأ» على ثلاث «المتعلِّم والمعلِّم والمنهج»، أجل! إنّ (اقرأ) تُثقل كاهل المتعلِّم بادئ الأمر، فأنّى له أن يقرأ وما هو بقارئ؟ فالمتعلِّم هو المعنيُّ بالأمر أوَّلًا وآخِرًا، فعليه أن يقرأ ويجمع ويحرر ويفسِّر لا أن يُكرِّر ما جمِع وفُسِّرَ وقُرِئ، وعليه أن يتعلّم بنفسه ليُعلِّم نفسه مهارة التعلّم الذاتي وليحظى بالتعلُّم مدى الحياة فيبدع ويسهم في البناء الحضاري، أمَّا المعلِّم فهو ربّان السفينة لا جدَّافُها، يَعرِض ولا يَفرِض، يُذكِّر ولا يُقرِّر، يُثِيْر ولا يُشير، يُعرِّف ولا يُعنِّف، يبشّر ولا ينفِّر، وهي سمات تقتضي إعداد معلم يتخلق بأخلاق ربنا الأكرم الذي علم بالقلم، علمًا أنَّ ذلك لا يقتضي منا أن نتجاهل أن لبعض المتعلمين نزوعًا إلى التجاوز والطغيان لأوهامٍ تخلقها البيئة أو مجموعة الرفاق أو العجب بالنفس، تحملهم على الاستغناء عن المعلم والتعليم أو الاستمساك بالسبب والإعراض عن واجب نسبة العلم إلى مصدره، وهي زلَّة ليست مستحدثة بل كأنها نزعة في الإنسان تتحرك كلما قامت فيه بواعثها ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] ولا تُستأصل شأفتها إلا بالتربية التي تعرِّف المرءَ بماهيته وأصل خلقته ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢].

### إعداد المعلِّم وتهيئة المتعلِّم:

بين جذور الإعداد وذُرَى الاستعداد يتردد صدى منهج الفكر التربوي المأمول المنبثق من دلالات اقرأ، وأثيرُ هذا الصَّدى هو الآخَر ما زال يبثُّ رسائل في العمق التربويِّ لعلَّ أهمَّها أربع:

**الرسالة الأولى**: منطلق التجديد في مؤسسات التعليم يتمثل في عمليّة إحياء متكاملة يقوم بها المعلم والمنهج معًا، فالمعلم ينفثُ الروح في المتعلمين وأسرهم ليوثِّق علاقتهم بثقافتهم وهويتهم وفنونهم، ويصمدُ في مواجهة الزلازل والأراجيف الفكرية والاجتماعية والألغام الثقافية، فهو يَقرأ ويُقرئ باسم الرب الذي خلق،

وينهض ليواصل أداء رسالته، ويحصّن المتعلمين وذويهم من وباء يستهدف اجتثاث الوعي وينتزع من الأفئدة أهمية قراءة الكتاب المنظور والمسطور باسم الخالق العليم الخبير، ناهيك عن أن المعلم بجاذبية شخصيته ووسائله وطرائق تدريسه يقي طلابه من جائحة الوعي الكاذب والأمية الفكرية التي فرضتها السلطة البصرية من خلال المرئيات الرقمية عبر وسائل التواصل وقنوات الإعلام التقليدي، فالمعلم فدائي يضحّي بنفسه ووقته ليحمي غيره، ويعتضد جهاده بنوعية المنهج المستهدف، فإن المنهج بعناصره ينبغي أن يُبنَى على نحوٍ يعزز رسالة المعلم ليُسهم في صناعة الوعي وحمايته بطريقة تصل الحاضر بالتراث وتفعل دورهما في استشراف المستقبلِ والتخطيطِ له وبنائِه على أشدِّه، ولا بدَّ لبنائه على هذا النمط من تعاضد أيدٍ تجتمع عليه، لا تفرقها نزعة عنصرية، ولا تمزقها انتماءات ومناكفات سوداوية تاريخية كانت أم دينية أم مذهبية أم اجتماعية وما كان على شاكلتها.

وقد دلَّ ذلك على أن نهوض المعلّم بمهامِّه في صناعة الوعي يتجلى في هذه الثلاثية:

**أ- نفث الروح في المتعلمين وأسرهم لينهض بهم ويبلغ الأهداف المنشودة.**

**ب - شد الوثاق والأواصر بالدوافع والحوافز المتنوعة ليعزز صلتهم بثقافتهم وهويتهم وفنونهم.**

**ت - مقاومة الزلازل الفكرية والتضحية لتحصين المتعلِّمين من تبعاتها.**

وأسُّ هذه الثلاثية وأساسُها التحررُ من عبادة الذات والإخلاصُ للحقيقة أيًّا كانت دون نظرٍ إلى انتماء حملة رايتها وروادها، ولن يبلغ المعلم تلك المنزلة العلية إلا إذا استند إلى منهج الأنبياء وأتباعهم على مدار التاريخ، فهم إنما بُعثوا لإحياء الناس بأنفاسهم الطاهرة ولتحريرهم من عبودية الذات ومن استعباد الآخرين.

تلكم هي الرسالة المنوطة بالمعلِّم لنشر الوعي بواجب الوقت وتعزيز المناعة لمقاومة خطر الجراثيم المهاجمة لتراثنا علنًا أو الكامنة في حضارة اليوم؛ فالمعلم إذًا في سعي دؤوب وتفانٍ مطلقٍ حتى يبلِّغ رسالته، وهو إنما يكون كذلك إذا كان:

١- قد نذر حياته لبناء مستقبل الأمّة بسُدَى التراث ولُحمة المعاصرة.

٢- واستقى ماء الحياة من معين كوثر العقل والنقل أصلًا، ومن سلسبيل الفنِّ والجمال فَرْعًا؛ ليروي به ظمأ القَفْر ويسد به فاقة الفقر المدقع لدى ملايين الخلايا الدماغية التي أوشكت أن تموت لدى جمهرة من الأميين استبد بهم الغزو البَصَري والتنافس المادي المحموم؛ فاستأصلا شأفة وعيهم بمصيرهم، ورضوا بالأمية داءً غازيًا لحجيراتِ فلذات أكبادهم، واستبدلوا بمستقبلِهم قروشًا لا يُشترى بملء الدنيا منها عقل أو وعي أو تربيةٌ تنفث روح الحياة في بيوتات متآكلة بالجهل والجفاء وسوء الأخلاق، متصدعة سرعان ما

تتهاوى فيخر السقف على ساكنيها ويتفرقون بعدئذٍ أيدي سبأ لا يلوون على شيء.

٣ـ وأغذَّ السير حثيثًا نحو أمَّة ظمأى تلهث من شدة عطشها، وتتلقف إرث حضارات دخيلة إذ ما باليد حيلة، فشمر عن ساعديه وأخمد نار أمته بنورها وأُوارها بنُوَارها، ومضى لتحقيق هذا الهدف يجوب البلاد ويغرس فسائل النور حيثما حلَّ وارتحل، يستغلُّ كلَّ ما حباه الله من طاقات في سبيل بلوغ أسمى الغايات.

٤ـ ويتكبَّد الصعاب ليؤثر رفاق الدرب بقروش يبذلها أو براحة يهجرها، يشجعهم ويحفزهم حتى لا تنقطع بهم السبُل.

٥ـ نحوَ هدفِه ماضٍ، وعنه لا يحيد، فلو أن السماء انشقت والأرض مُدَّت وتداعى عليه الناس لما انصرف عن بُغيته وطُلبته.

أجل! لن يتزحزح المربون المخلصون عما هم في سبيله مستبسلون، بل إنهم ليعدّون الحديث عن الماضي ردَّة عن بناء المستقبل الواعد الذي ينشدون، ويرون أنّ كلّ شيء في سبيل تنوير المتعلمين يهون، حتّى إنّهم ليموتون ليحيا بموتهم آخرون، لا يثنيهم القدح ولا يُغريهم المدح، بل إنّهم ليشهدون القدح نقدًا بناء، فإذا بالداء عندهم عين الدواء. أولئك هم السعداء الذين نذروا أنفسهم لإحياء العقول، وأيقنوا بأنّ ربهم الذي يستنزلون رضاه لا بُدّ أنْ سيلهمهم سبل هداه، ويجنبهم الزلل والزيغ عن مبتغاه؛ فهم به وله، ومنه وإليه، دأبهم أن يعرّفوا المتعلِّمين عليه، وديدنهم أن لا يشهدوا أنفسهم شيئًا بين يديه[١].

**الرسالة الثانية**: أهمُّ مقومات المعلِّم المنشود في عملية الإحياء المذكورة آنفًا:

**أ ـ** التفاني في تبليغ رسالته وتحقيق أهداف أمَّته ليبلغ بالأهداف أعلى ذروة في الجودة والاعتماد.

**ب ـ** إنكار الذات والتضحية بكل شيءٍ حتى الثناءِ والعطاء.

**ج ـ** إخلاصه في أداء رسالته على نحوٍ يستثمر فيه مواهبه وطاقاته كلَّها لبناء الإنسان وغرس فسائل الإيمان، ثم يبرهن على هذا كلِّه بتهيُّئِه لتبادل الأدوار من مدير إلى معلم وعكسه، ومن رفاه المدن الحضارية إلى الهجرة نحو بلاد نامية، فرضوان الله وحده هو مبتغاه، وسبيله إليه تعريف المتعلمين به سبحانه دون أن يرتقب منهم أجرًا، عاجلا كان أم آجلا، ثناءً أو عطاءً، فالمعلِّم بَرٌّ جواد لا يُغريه العطاء ولا يحجبه الحرمان، له عزيمةٌ لا تفتر ومضاءٌ لا يرتدُّ[٢].

**د ـ** أن يقدر مقامَه حقّ قدره؛ فإن لم يفعل فقد حقَّر ما عظّم الله، فإنّ مقام المعلم ومنصبه أعلى من أي منصب آخَر؛ لأن رسالته تبعده عن السوء وتجعله من أرباب الفضائل في الدنيا وتعلي رتبته في الآخرة إلى درجة لا يتصور قدرها، وخلوده

(١) ونحن نبني حضارتنا، ت: عوني، ص٣٦ ـ ٤٨.
(٢) المرجع السابق.

من خلود رسالته، إلا أنّ هذا الهدف يتطلب منه كي يتحقق عزمًا ووعيًا بوزن الرسالة وإخلاصًا وجهدًا دؤوبًا في سبيل تبليغها، فلا يستطعم الراحة ولا يستهويه التملك، نعم لقد كان حب الكفاح يومًا ما سببا في ولادة دولة عملاقة من قبيلة صغيرة، وعندما احتل حب الجواري مكان عشق البراري والسواري تداعت هذه الدولة فصارت أثرا بعد عِيْن، وهذا يكشف عن طبيعة رسالتنا نحن المعلّمين فإن درجة الميل أو الانحراف عن الخط المستقيم تطرأ عليها شيئًا فشيئًا، والتمادي يودي إلى السقوط من القمة في قعر سحيق بينما نحن سادرون هائمون ناهيك عن أننا واهمون بأنّا على الخط المستقيم ماضون[1].

هـ ـ تجشمه لمشقة باهظة تتجسد في حمله هموم المتعلّمين وتحمّلِه لمشكلات الطفولة والمراهقة لديهم في محاولةٍ منه لعلاجها بالوقاية والإيماء، وبالتوجيه والتنبيه لا بالتقريع والتبكيت والإملاء؛ لأنّ طبيعة هذه السن لا يمكن مسخها بل تتعين رعايتها والاستجابة لها وفق مقتضيات الفطرة ما وجد المعلّم إلى ذلك سبيلًا، ومسؤولية المعلّم هذه باتت ضربة لازب اليوم، فالمعلم الحكيم يفعل كما الماء إن جابهته صخرة أتاها يمنة أو يسرة.

و ـ توازن العلاقة بين المعلم والطلاب، فالمعلم لا يفسد الود بينه وبين طلابه إذا ما أقام نفسه في مقام الحب والولاء للحق والكره والبراء لأجل الحق والتهيؤ لقبول كلّ ما هو حقٌّ، ولا ريب أن هناك استراتيجيات قتلت بحثا تضمن تحقيق الحقّ في شتى أشكاله، وتستمد هذه الاستراتيجيات قيمتها من كفايتها وكفاءتها في خدمة أفكار الحقيقة ومبادئها[2].

**الرسالة الثالثة**: ضرورة تهيئة المعلّم على نحو يبلغ فيه إتقان إصابة الهدف وتحقيقه، ويُبرهِن ولا يُلقّن، فالصدق والثبات ودقّة البيانات في تجاربه العلميَّة وأساليبه التربوية شروطٌ أوّليّة يتقدَّم بها بين يدي حُكمه على أيّة قضيّة وقبل تعميمه لأيّة تجربة أو أسلوب، ولسوف يحظى المعلّم حينئذٍ بثقة الرأي العامّ ويتصدّر عنده أعلى مقام؛ وهذا ما يجعله يتسربل بالطمأنينة على الدوام، ومن ثَمّ فلا بُدّ أن تتبدّد من حوله شكوك وأوهام طالما رأت في معلّم المنزل تاجرًا جائرًا أو متسوِّلًا جائلا، فإذا بها تنجاب عنّا ليغدو معلّم اليوم في عيوننا رسولًا كريمًا بين يدَي فتحٍ حضاريٍّ مبين.

يتجلّى هذا التأهيلُ وذاك الإعدادُ لدى المعلّم من خلال استراتيجية متكاملة، ويتبدى في استعداد نفسي وعقلي ومادي لقيامه بالعملية التعليمية حقَّ القيام، ولا يتم ذلك للمعلم بشكل صحيح حتى تكتمل لديه القناعة التامة بالرسالة والرغبة في أدائها وتحقيق أهدافها؛ لذا فعليه أن يُعِدّ أجوبة واضحة عن الأسئلة التالية:

(١) أضواء على الطريق، ت: أورخان محمد، ص ١٢، ٣١.

(٢) المرجع سابق، ص ٢٨.

**أ ـ مَن أُعلِّم؟ وذلك يقتضي منه استقراءً منتِجًا ودراسةً معمَّقة لخصائص المتعلمين في المراحل الدراسية المختلفة وفق بيئتهم وهويّتهم وثقافتهم ونشأتهم.**

**ب ـ لماذا أُعلِّم؟ وهذا يوجب عليه أن يتشرَّبَ وأن يتضلع بأهداف رسالته ومؤسسته التربوية بمستوياتها المتعددة.**

**ت ـ ماذا أعلم؟ وتلك مسؤوليّة تستلزمُ منه الاستيعاب الشمولي للمناهج الدراسية وحاجات المتعلمين ومشكلاتهم.**

**ث ـ كيف أعلم؟ وههنا تبدو مهاراته الشخصيَّة والمهنيَّة وخبراته بطرق التدريس المناسبة لكلِّ موضوع أو فئة.**

إنّ تهيئة المعلِّم على هذا النحو تُعَدُّ مسؤولية فرديَّة ومؤسساتية معًا، وتنجم ضرورة هذه التهيئة من طبيعة رسالة المعلم، فالمعلم أطول المخلوقات عمرًا لأنَّه حيّ بفكره وعلمه ما دام هناك من يتوارث رسالته ويبلغّها للأجيال اللاحقة[1].

**الرسالة الرابعة**: حصافة المعلِّم في الموازنة والمواءمة بين الأهداف السلوكية المعرفية والوجدانيَّة والحركية، ثم التقويم المستمرّ لأدائه المهني في ضوء هذه الموازنة؛ إذ إنَّ الأهداف تتكامل فيما بينها لتبلغ مرتبة الإحسان في بناء الإنسان مهاريًّا ووجدانيًّا ومعرفيًّا، فالأهداف التي تغذّي العقل والرُّوح والبدن لا بد أن تكون نابعة من وئام متناغم بين العلم والدين والفنِّ، وبهذا تتعادل إمدادات البدن والعقل والروح، وتفسِّر الطبيعة ما وراءها، أجل فهذا هو عصر المربّي الذي يعمل على المواءمة بين العقل والقلب والبدن، وهذا هو سبيل النبوة، وهو السبيل الذي تبوأ فيه كلٌّ من العقل والمنطق والوجدان مكانته، وقد آن الأوان ليرتفع الحجاب بين الطبيعة وما وراءها، ولتتلاقى الآيات التكوينية والكونيَّة والتشريعية على محور واحد في حياة الناس.

> الإنسان أرض طيبة تستوطن فيها بذورُ الخير والحق والجمال

إنّ تربية الإنسان تربيةً كليةً ضرورةٌ، وفي ثلاثية الأهداف السلوكية ما يفي بهذا الغرض؛ ذلك أنَّ الإنسان أرض طيبة تستوطن فيها بذورُ الخير والحق والجمال، فهذه التربية الشموليّة هي التي تحول دون انحلال الإنسان وانفصامه عن فطرته، وترسم خريطة حراكه وأنشطته وَفقا لحاجاته ومشكلاته واستعداداته، أمَّا من لم ير الإنسان سوى عقل وبدن فقد أبعد النُّجعة وفاته اللباب والجوهر، ونعني بالجوهر البُوصَلة التي تحدّد

(١) المرجع سابق، ص ١٣.

للإنسان طريق السعادة والبقاء والراحة النفسية، وتكشف له عن قوة كامنة فيه يجتاز بها نفسه والعوالم كلَّها.

والسبيل الأقوم لتحقيق التكامل بين الأهداف هو أن يتفاعل المعلمون والمتعلمون في مخيمات تعليمية تربويّة تضطلع بتكوينهم وفق نسيج ثلاثي: ١ ـ التكوين العلميّ ٢ ـ التزكية الرّوحيّة ٣ ـ الانضباط العسكري.

وهذا التفاعل يُذكي فطرة المتعلم ويستخرج خفايا طاقاته وقواه السحرية ليقوم بتوجيهها نحو الغاية المثلى، وحينها ينجح في اجتياز علائق النفس والجسد والهوى والفناء، ويكتب لرسالته الخلود دون إفراط أو تفريط في تلبية حاجات الجسد والعقل والروح لدى طَلَبتِه أو أولاده.

ولا يجوز بحالٍ أن يشغر التدريس الفعَّال أو التدريس بالمواقف أو التعلُّم النَّشِط عن أدبيَّات ومهارات هذا التفاعل التربويِّ الذي يعزِّز المشاركة ويحقِّق الدافعيَّة ويغذي الحافز ويُعلِي من شأن المعلِّم القُدْوة ليتخذه المتعلم أسوة حسنة، وهذا هو لُباب التفاعل التربوي الذي تصفه الأدبيات بأنَّه «اقتناع وتجاوب نفسي بين طرفي العملية التربوية ـ المعلم والمتعلم ـ يؤدي إلى التأثر والاستجابةِ المعرفية والسلوكية من الطرف الثاني للطرف الأول»[١].

وتتجلى أهمية التفاعل التربوي في العملية التعليمية وفقا لتلك الأدبيات في انتقال الخبرات بالوسائل السمعيّة والبصريّة والحركيّة، وفي اكتساب المعلومات، واصطباغ المتربي بصبغة المربّي، فالعملية التربوية تعني بناء الإنسان في دائرة رضا الرحمن لا تشييد المرافق والبنيان؛ وإلا فأعيروني قَدُوما أحطِّم به تلك العمارات أو معولا أقوِّض به تلك الشاهقات إذا ما غدت هدفًا يُقصَد أو صنمًا يُعبَد كما قد قيل.

> أكدت الدراسات والتجارب أن للتفاعل التربوي نتائج ذات دلالة برهنت عليها إحصاءات الدراسات الميدانيَّة في هذا المجال

إنّ شكوى الآباء والمسؤولين والمعلمين لَتحمل في طيّاتها برهانَ صدق على تجاهلهم أو جهلهم بمهارات التفاعل التربوي والتعامل الإيجابي مع الآخرين، وقد أكدت الدراسات والتجارب أن للتفاعل التربوي نتائج ذات دلالة برهنت عليها إحصاءات الدراسات الميدانيَّة في هذا المجال، وأهمُّها وجود علاقةٍ إيجابية بين

(١) عبد العزيز بن محمد النغيمشي: علم النفس الدعوي، دار المسلم، ٢٠٠٣م، ص ٣٢٥.

التفاعل الإيجابي والتحصيل العلمي، وللتفاعل أيضا أثر بالغ في تقويم السلوك، والنجاح في الحياة العامة، وتنميةِ الشخصية ونماءِ الثقة بالذّات، والمعالجةِ الناجعة لمواقف سلبيَّة قد تعرِض للطالب، ولا ريب أنّ من واجب المعلِّم الحصيف تُجاه هذه المواقف السلبيَّة أن يتفاعل معها تفاعلا إيجابيًّا ليستخرج من الداء خالص الدواء.

## التفاعل بين المعلم والمتعلمين ضروري لتحفيز الطلبة على التعلُّم الذاتي والتعلُّم النَّشط

لقد بات التفاعل بين المعلم والمتعلمين ضروريًّا لتحفيز الطلبة على التعلُّم الذاتي والتعلُّم النَّشط الذي من شأنه أن يستثير معارفهم السابقة ويُشرِكهم في إنجاز أعمالٍ تجبرهم على التفكير فيما يتعلمونه، ويُلْجِئهم إلى مهامِّ التفكير العليا كالتحليل والتركيب والتقويم ويشجع التعاون بين المتعلمين، فالتعلم يتعزز بصورة أكبر عندما يكون جَمَاعيًّا، وهذا بدَهيّ فإنّ التعلّم المتقن كالعمل المتقن، يتطلّب التشارك والتعاون لا التناحر أو الانعزال، وللتفاعل سهم وشأن عظيم في صناعة الوعي بأهمية التعلم الذاتي لا سيما أن التعليم السَّحابي أو عن بعد في فترة كورونا غدا أشبهَ بالتعلُّم الذاتيّ من وجوهٍ عدة، فما لم يحظَ المتعلم من معلمه بما يشحذ همته ويشحن طاقته لن يجد عند غيره حوافز ولا بواعث تحمله على مقاومة اللعب والبصريات وتقديم التعلم على الولع بالشبكة وبرامجها.

بهذا النمط من التفاعل التربويّ يغدو المتعلم مشاركا نشطًا في العملية التعليمية والتعلم الذاتي في زمن الجائحة وبعدها، ويفعِّل ما تعلَّمه في موادَّ ومصادر معرفيَّة أخرى؛ ذلك أنَّ استثارة المعارف السابقة باتت شرطا ضروريًّا للتعلُّم الجيِّد.

ولا ريب أنّ للتهيئة وإثارة العقل والوجدان والحواسِّ بالأسئلة والمناقشة والعروض والمواقف والتعزيز واستثارة العاطفة دورًا فعَّالًا في تحقيق الدافعية وعصف الذهن والتفكير الناقد وإثارة الوجدان وتَمثُّلِ مواقف الأُسوة الحسنة، وهذا هو التفاعل التربويُّ الذي يثمر الإقناع والإمتاع والاتِّباع على حدٍّ سواء.

هذا، وإنَّ المدرسة الإصلاحية الحقيقةَ بالتجريبِ في هذا العصر هي مدرسةُ بناء الإنسان على هدْي رؤية إصلاحيةٍ متكاملة في مؤسسات التعليم ومعاملها ومخابرها، فالجماعات الدعوية ما تركت بابًا إلا طرقته ولا منهجًا إلا جرَّبَته مستهدفة إصلاح الإنسان والمجتمع والدولة وريادة الأمة؛ وبقيَت مدرسةُ الفتح، فالفاتح

الجدير بتقلد مفاتيحها كرَّ في آخر أمرِهِ عاطفًا؛ عَطْفًا وشفقةً على من بعدَه إِثْرَ تجربتِه الفريدة في الإصلاح الاجتماعيِّ والسياسي، روَى شيخُ مدينة حماة محمد الحامد رحمه الله عن هذا الفاتح ـ الذي وصفَه بأنه مجدّد قرونٍ لا مجدّد هذا القرن فحسب ـ أنَّه سمعه في آخر لقاء له به يقول: «لو استقبلْتُ من أمري ما استدبرتُ لَقصَرْتُ الجماعةَ على التربية والتعليم»، وكأنه تمنٍ يُرادُ به الطلبُ، لم لا ولِمُؤسسات التربية والتعليم جيوشٌ بوسعك أن تنتظرها في كل مؤسسةٍ! إنك لتراها عندئذٍ حاكمةً رائدةً قائدةً للدولةِ والدُّوَل حُكمًا وحقيقةً في كلِّ ساحٍ بكلِّ سلاحٍ.

تلكم هي رسائل اقرأ إليكم أي صُنَّاع العقول وبُناة الحضارة والمستقبل، فأنتَ أنتَ أيها المعلم وحدَك تقف شامخًا هناك كجذع النخلة في صحرائنا. فبينما تعصف بأجيالنا ريحٌ صرصر عاتية تَهُزُّ جلَبتُها أطرافَك بعنف تُساقِط علينا من فيك دُرًّا ندِيًّا، وي كأنك تتلو علينا اليوم من وحي ربنا ما لم تَسمعه آذاننا أو تستوعبه قلوبنا! فالآن ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ **حتى نقتفي إثرك فنقرأ باسم الخالق ما أغفلَه أو تغافل عنه الآخرون في قراءتهم للخَلْقِ، أمَّا نحن** في قراءتنا فباسم الله نبدأ، وبه نستعين، وإليه نسير، فالقراءة عن الله وبالله هي جوهر العلم، والتعلُّم هو مشكاة العبودية الحقَّة للربِّ الذي خلق، فالعلم والمعرفة ريادة في مقام العبودية، فلا عبد أعبد من الرسول ﷺ وهو يتبتل بل يقول: هل من مزيد ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤] وعلى قدر علمك بالله تخشاه ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وخير العلم ما كانت الخشية معَه، وسلسبيله ما كان الإخلاص منبَعَه، فالأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سرّ الإخلاص فيها، وإنّ الله ليحيي القلب الميِّت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر[1].

(١) للبحث في هذا الموضوع يُراجع كلٌّ من: ياسين قنديل: التدريس وإعداد المعلم، دار النشر الدولي، الرياض، ١٤٢١هـ. عبد المجيد نشواتي: علم النفس التربوي، مؤسسة الرسالة، ١٤٣٢هـ ٢٠١٠م. محمود عبد الحليم منسي: علم النفس التربوي للمعلمين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

# الوعي الحضاري

د. عبد الكريم بكار

نحن المسلمين نشعر أن الله تعالى أكرمنا بمنهج قويم وبرؤية رشيدة لحياة الإنسان في عاجله وآجله، ونحن إلى جانب ذلك أمة كبيرة ذات حضارة ممتدة، ألهمت العالم قرونًا، ونحن في الوقت نفسه جزء من عالم معاصر.

ومن محددات ومؤشرات هذه الاعتبارات والحيثيات، يتشكَّل وعينا الحضاري، ومنها وبها ننطلق في تشخيص أزماتنا، وتلمّس الحلول لها.

## ما الوعي؟

وعي الشخص هو ما يتحصَّل لديه من إدراك وشعور حول ذاته وحول محيطه والعالم من حوله، وإن الوعي هو حصيلة لعمليات ذهنية وشعورية معقّدة يسهم فيها الحدس والخيال والإرادة والأحاسيس والمشاعر والضمير بالإضافة إلى الفطرة وحوادث الحياة والنظم الاجتماعية والظروف التي تكتنف حياة المرء، والقيم والمبادئ التي يؤمن بها[1].

## ما الحضارة؟

الحضارة مأخوذة من سكنى الحضر، وإن المدن والقرى الكبيرة، هي التي يكون فيها الاستقرار والنظم المعقَّدة، وفيها تكون الجامعات والمراكز الثقافية إلى جانب الكثير من التفاصيل المعيشية التي تلائم تنوع الأذواق والرغبات.

الحضارة هي الطور الناتج عن الجهد الذي بذله الإنسان من أجل الخلاص من كل ما يسبِّب له الألم والحرج والضِّيق، والجهد الذي بذله الإنسان في سبيل الحصول على الراحة والرفاهية وتأمين احتياجاته بأقل قدر ممكن من الجهد العضلي، فالإنسان مغرم حتى النهاية بالعيش السهل والممتع.

انطلاقًا مما ذكرناه نستطيع القول: إن المفردات التي تكوِّن (الوعي الحضاري) تتلخص في صور ذهنية ذات تفاصيل كثيرة معبِّرة عن متطلبات النهضة وصناعة الحضارة، يمكن أن نعد منها الآتي:

١ـ معرفة جيدة بالذات أي وجود إدراك عميق لشخصية الإنسان المسلم وطبيعة تركيب المجتمع

(١) ( تجديد الوعي للكاتب) : ١٠.

الذي يعيش فيه الواحد منا.

٢ـ استحضار صورة واضحة عن مواطن القوة والضعف التي مرت بهما الأمة واستحضار شيء من أسبابهما التاريخية والواقعية، مع اجتهاد في تقدير وزن كل سبب من الأسباب المتطورة ومدى إسهامها في صناعة الحضارة.

٣ـ صورة عن وضع الإقليم الذي ينتمي إليه البلد الذي نعيش فيه وصورة عن أوضاع العالم المعاصرة أو أوضاع الدول المؤثرة في توجيه مسيرة الحضارة اليوم.

٤ـ الميزات التي يتمتع بها البلد المسلم الذي يعيش فيه الواحد منا على مستوى الموقع الجغرافي وعلى مستوى الاقتصاد والثروات المخبوءة في باطن الأرض.

٥ـ مستخلص دقيق وشامل لتطلعاتنا الحضارية على المستوى المحلي والعالمي، فالأحلام والتطلعات تستنهض الهمم لوضع الخطط. والخطط من جهتها تساعد على حشد الإمكانات وترتيب الأولويات.

٦ـ دور ديننا في دفع حركتنا الحضارية، وتوليد الطاقة المطلوبة لبذل المزيد من الجهد، بالإضافة إلى فهم عميق لإرشاداته وتوجيهاته على مستوى تحديد الوجهة ورسم خطوط العمل.

٧ـ حاجات البلد الذي نعيش فيه وحاجات أمتنا لأدوات النهوض الحضاري على مستوى التخصصات الجامعية وعلى مستوى الباحثين والعلماء ومستوى الإدارة والتنظيم والتخطيط.

٨ ـ وعي بأهم المعوقات التي تجعل عمليات التحضر لدينا بطيئة أو متعثرة، مثل الجهل والاستبداد والفقر، وفقد الفرد المسلم للأمل والثقة بالنفس والفاعلية.

٩ـ إدراك عميق للمخاطر الواردة من الخارج على مستوى الاعتقاد والأخلاق والمفاهيم، واستحضار بعض الخطوط العريضة في حماية الشباب منها.

١٠ـ فهم الانقسامات الإثنيّة والطائفية والمذهبية التي تمزّق بعض المجتمعات الإسلامية، وفهم الطريقة المثلى للتعامل معها.

> التقدم الحضاري لدى أي أمة مدين لشيئين اثنين: الوعي والطاقة الروحية

## أهمية الوعي الحضاري:

التقدم الحضاري لدى أي أمة مدين لشيئين اثنين: الوعي والطاقة الروحية، وإن (التاريخ) عبارة عن أحداث متصلة صنعها أناس يملكون روح التضحية والعطاء والمثابرة، ويملكون الشجاعة والقدرة على المخاطرة، وهذه السمات

كانت متوفرة لدى كثير من الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد أطلق النبي ﷺ من خلال الوحي ومن خلال سلوكه الشخصي طاقة روحية هائلة شكَّلت الوقود الأوليّ والأساسي للاندفاعة الحضارية الأولى للعرب والمسلمين، ولولا تلك الطاقة لما أمكن تشييد حضارة عظيمة كالحضارة الإسلامية خلال قرن واحد.

أما الوعي فمهمته توظيف الطاقة الروحية للأمة في تحسين أوضاعها والارتقاء بها، وفي وقايتها من الوقوع في الأخطاء الجسمية والمغامرات القاتلة. إن الإنسان إذا وجد نفسه بين (الأسود) فقد يهلك لكن هذا القانون أو الاحتمال لا ينطبق على مدرب الأسود[1]، لأنه من خلال خبرته ووعيه بطباع الأسود، ووعيه بأسلوب التعامل معها يحمي نفسه من افتراسها.

إننا لو رجعنا إلى تاريخنا لوجدنا أن ضعف الوعي الحضاري وقوته لدى المسلمين، هو المسؤول عن تراجع الحضارة الإسلامية وتقدمها، ونهوض الأمة أو وقوعها في براثن التخلف.

الارتقاء بالتعليم في كل مراحله، ووجود المفكرين والمثقفين الكبار يساعدان على نحو جذري في تنمية الوعي لدى الأجيال الجديدة، وهذا مع صعوبته وعظم تكاليفه، يشكل المخرج الموثوق من كثير مما نحن فيه؛ والله المستعان.

(١) (الإسلام بين الشرق والغرب : ٣٢٥).

# منظمات المجتمع المدني السوري

## الجذور والواقع والمستقبل

الباحث: محمد علي النجار ـ محرر مجلة مقاربات

تقوم الدولة على ثلاثة أركان؛ الأرض والشعب والسلطة الحاكمة، ولكل من هذه الثلاثة أحوال تعرض لها ترتقي بها أو تنحط، وإذا كان الجسم السياسي للدولة يكتسب احترامه من قدرته على تحقيق مبادئ العدالة وحفظ الأمن والنهضة بالأمة؛ فإن المجتمع أو الشعب يكتسب احترامه من رقيه الحضاري وتكافل أفراده وقدرته على القيام بشؤون نفسه وإصلاح أخطائه.

وإن من أهم ما يميز المجتمعات المعاصرة المتقدمة مؤسساتها المدنية التي تعمل على تحويل عمل الخير في المجتمع من حالة عشوائية إلى حالة منظمة ومنضبطة تتكامل فيها الجهود. وقد تميز الشعب السوري قديما وحديثا بالانضباط والرتابة والإنتاج الفردي والجماعي، فكيف كان شكل منظمات المجتمع المدني السوري في التاريخ القديم عموما وفي العصر الحديث خصوصا؟ وما واقعها بعد الثورة؟ وما المأمول منها خلال السنوات القليلة القادمة؟

تتضمن هذه الدراسة ثلاثة مباحث وخاتمة، هي:

**المبحث الأول**: مفهوم المجتمع المدني، ومؤسساته عبر التاريخ السوري.

**المبحث الثاني**: منظمات المجتمع المدني السوري في العصر الحديث.

**المبحث الثالث**: منظمات المجتمع المدني السوري بعد الثورة الواقع والمستقبل.

**خاتمة**: في أسس العمل المجتمعي.

## المبحث الأول: مفهوم المجتمع المدني ومؤسساته عبر التاريخ السوري

### أولاً: مفهوم المجتمع المدني:

المجتمع المدني مصطلح مترجم عن ( civil society) في اللغة الإنجليزية، وقد اشتهر اصطلاحا ومفهوما في الدراسات الاجتماعية المعاصرة، للدلالة على ما يقابل السلطة الحاكمة، فكما أن للدولة والحكومات مؤسساتها التي تقوم عليها، فإن للمجتمع ركائزه ومؤسساته التي يقوم عليها. وبحسب علماء الاجتماع فإن هذا المصطلح يشمل

جميع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والأسرية الواقعة خارج دائرة النظام السياسي والاقتصادي للدولة.

وقد وقع جدل طويل حول مفهوم المجتمع المدني بين صناع الفلسفات السياسية والاجتماعية في الغرب، كما وقع جدل آخر أثناء نقل المصطلح إلى العالم الشرقي، ووقع الخلاف حول تفسيره، فهل هو المجتمع المتحضر الذي نظَّر له ابن خلدون في مقابل المجتمع البدوي؟ أو ما يقابل تشكيلات النظام السياسي والاقتصادي والإداري للدولة كما قرره الغرب؟

ومهما يكن فإن معناه القريب والبسيط واضح لعموم المتخصصين أو المثقفين المهتمين بالشأن العام، وقد عرفه البنك الدولي بكونه: (مجموعة واسعة النطاق من المنظمات غير الحكومية والمنظمات غير الربحية التي لها وجود في الحياة العامة وتنهض بعبء التعبير عن اهتمامات وقيم أعضائها أو الآخرين، استنادا إلى اعتبارات أخلاقية أو ثقافية أو سياسية أو علمية أو دينية أو خيرية)[1].

## ثانيًا: تطور منظمات المجتمع المدني:

في العصر الحديث سعت معظم الشعوب المتقدمة إلى بناء مؤسسات مستقلة عن الدولة تعنى بشؤون المجتمع وتنظم أموره وتسعى في شؤون أفراده بشكل عام، أو بشكل خاص بفئة منهم. وقد غدا تقدم المجتمع يقاس بمدى قدرته على تنظيم نفسه والقيام بشؤونه والرقي بحاله.

ونظرا لاهتمام الشعوب الإنسانية المعاصرة بتنظيم نفسها توجه مفكروها نحو تأصيل عمل (منظمات المجتمع المدني) ووضع قوانين خاصة بها تساهم في ضبطها وتطويرها وتوجيهها حتى غدا عمل هذه المنظمات حقلا معرفيا خاصا تؤلف فيه الكتب وتنشر فيه الأبحاث العلمية.

## ثالثًا: المجتمعات الإسلامية ومنظمات المجتمع المدني:

إن أشكال الإدارة الاجتماعية التي تنتهجها منظمات المجتمع المدني المعاصرة ليست بدعا من حياة البشرية، وإنما هي امتداد متطور لأنساق الإدارة الاجتماعية التي سلكتها التجمعات البشرية منذ آلاف السنين. ولكن ما يميز هذا المجال في عصرنا هو التطور السريع والواسع الذي لحق به كمعظم الحقول المعرفية والإنسانية الأخرى.

باعتبار المجتمع السوري الحالي نتيجة لتفاعل سكان سوريا المسلمين وغيرهم مع الحضارة الإسلامية عبر تاريخها الطويل فإن من الجيد ذكر نشأة العمل المدني في الحضارة الإسلامية.

إن المجتمعات المسلمة التي ظهرت قبل أربعة

(١) انظر مجلة (غليمبس/ومضة) كانون الثاني/٢٠٢٠ ـ لمحة تاريخية عن المجتمع المدني السوري ص (٢٥) وما بعدها.

عشر قرنا من الزمان كانت واحدة من التشكيلات البشرية المعاصرة لها، تتميز بأشكال خاصة من الإدارة المجتمعية كان أكثرها صادرا عن توجيهات الإسلام نحو الحث على عمل الخير وتنظيم العلاقات الاجتماعية والسياسية، وقد ظهرت بأشكال مختلفة حسب المرحلة التي تمر بها الدعوة الإسلامية، إذ بدأت هذه الحركات الاجتماعية بالظهور في دار الأرقم في مكة وفي شعب أبي طالب وفي بيعتي العقبة ثم نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

ولعل أبرز نظم الإدارة الاجتماعية التي ظهرت عند المسلمين وتحولت إلى مؤسسات مستقلة ومركزية في حياة الناس هو (نظام الوقف)

الذي شكل عبر تاريخ المسلمين الطويل نواة لظهور منظمات المجتمع المدني المختلفة، ويُروى أن أول وقف في العصر النبوي كان عبارة عن سبعة بساتين تعود إلى مخيريق اليهودي أَوكَل أمرها إلى النبي ﷺ قبل استشهاده في أحد فأمر بوقفها، ومن الأوقاف التي اشتهرت في العصر النبوي بئر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي اشتراها وأوقفها على المسلمين، ووقْفُ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بستانا على الفقراء، ووقف أبي طلحة حديقته الشهيرة بيرحاء. وعلى الطريقة ذاتها انتقل الأمر إلى بلاد الشام وتطور في ظل الخلافتين الأموية والعباسية وما تخللهما من دويلات.

## رابعًا: ازدهار المؤسسات المدنية في العصرين الأيوبي والمملوكي:

عبر التاريخ الإسلامي نمت مؤسسات الوقف وتكاثرت بشكل مضطرد في ظل معظم الدول القوية التي تعاقبت على حكمه. أما بالنسبة لبلاد الشام فإن العصرين الأيوبي والمملوكي يعتبران قمة ازدهار الأوقاف والمؤسسات الاجتماعية، وقد عرفت في العصر المملوكي ثلاثة أنواع من المؤسسات الخيرية المنبثقة عن الوقف، وهي أوقاف الأحباس وأوقاف الكمية وأوقاف الأهلية، وكانت تشمل أعمالها جميع أنواع البر والخير الدينية والدنيوية، كما انتشرت في دمشق في تلك الفترة ظاهرة وقف البيوت بعد الممات لتستغل كمدارس، وكان من أشهرها «دار الحديث البهائية» التي وقفها الشيخ المسند بهاء الدين القاسم (٧٢٣هـ)، فانتشرت فيها مئات المدارس ووقفت عليها الأموال والضياع والبساتين والحوانيت، مما أدى إلى ظهور مدارس متخصصة بتدريس أنواع شتى من العلوم[١].

(١) (الوقف الإسلامي في العصر المملوكي لسهاد نصيف جاسم) مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية المجلد ٢٥ العدد ١ كانون الثاني ٢٠١٨م. باختصار ص (٥١٤ ـ ٥٢٤).

كما امتلأت البلاد بالمشافي والمؤسسات القائمة عليها، وكانت ثمة أوقاف خاصة بخدمة المسافرين وأخرى للعناية بالمرضى، أو مساعدة الطلبة والإنفاق على مراكز التعليم المختلفة، وقد كان لأمراء المماليك دور كبير في ذلك (ففي عصر الدولة المملوكية (٦٥٨ – ٩٢٣هـ) ازدهرت الأوقاف ازدهارا واسعا وتعزز أثرها في المجتمع، إذ تسابق السلاطين إلى الوقف وكذلك الأمراء والأعيان والنساء وأهل الخير من المسلمين، وتعددت مصادر الأوقاف وأوجه الصرف منها حتى شملت جوانب كثيرة من حياة المجتمع آنذاك. وقد اعتنى المماليك بالأوقاف عناية فائقة وأكثروا منها في بلادهم، إلى جانب إقامة كثير من المنشآت التعليمية والصحية والمرافق العامة الأخرى)[١].

وكان للنساء دورهن الواضح في ذلك، (فقد أصبح للنساء نصيب وافر في هذا الشأن وذلك يعود إلى تعدد ثروات المرأة في العصر المملوكي، وحرصها على القيم الإسلامية الرفيعة، مما جعلها تسهم إسهاما كبيرا في أوقاف بلاد الشام)[٢].

## خامسًا: المؤسسات المدنية في سوريا تحت السلطة العثمانية:

تطورت منظمات المجتمع المدني تحت اسم (الوقف) في ظل السلطنة العثمانية تطورا سريعا تجاوز كل مراحل التاريخ الإسلامي السابقة، وشمل نشاطها جميع ميادين الحاجات البشرية، فساهمت في إدارة المجتمع وضبطه وتخفيف مسؤولية القيام بشؤونه عن السلطة السياسية الحاكمة، ولكن هذا التطور كان في الأقاليم العثمانية الأوربية أوضح منه في الأقاليم الشرقية والعربية، لأسباب كثيرة من أهمها قرب الأقاليم الإسلامية في أوربا وأعالي الأناضول من مركز الحكم العثماني ولوقوعها على حدود الدول الأوربية التي نشأت فيها فلسفات اجتماعية حديثة كان يمكن لها أن تسقط السلطة العثمانية في هذه الأقاليم لولا توجه السلطة المركزية في إسطنبول نحو دعم منظمات المجتمع المدني الخدمية والاقتصادية لتقوم بمواجهة أدوات النظام الغربي الرأسمالي الذي سخَّر الدينَ وعملَ الخيرِ لخدمة رأس المال والسياسة.

يقول عمر النشوقاتي في كتابه «**جهود علماء دمشق في رواية الحديث الشريف في العصر العثماني**»: (كثرت المدارس في دمشق على اختلاف أنواعها في العصرين الأيوبي والمملوكي؛ من مدارس القرآن والحديث، ومدارس الحنفية والشافعية والحنابلة والمالكية، وغيرها، واستمر

(١) انظر أوقاف النساء في بلاد الشام وأثرها في الحياة العامة خلال العصر المملوكي (٦٥٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٣٥٩ ـ ١٥١٧م) ص (٨)، وانظر حمود بن محمد النجيدي ـ الموارد المالية لمصر في عهد الدولة المملوكية الأولى، ص (١١١ ـ ١١٣)

(٢) المرجع السابق، ولتفاصيل أكثر انظر المرأة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي لهنادي بنت إبراهيم أبو خديجة.

قسم منها في نشاطه في العصر العثماني، وتحول قسم منها إلى مساجد أو زوايا أو دور للسكن، واندثر قسم ثالث بعوامل الزمن. واستولى بعض المتنفذين في أوقات مختلفة على أوقاف المدارس وغيرها، فضعف دورها التعليمي، مما حدا ببعض الولاة الغيورين إلى ضبط الأمور ومراجعة شؤون المدارس. أما ما بُني من المدارس في العصر العثماني فيُعد قليلا نسبيا، وأشهر المدارس التي بناها العثمانيون التكية والمدرسة السليمانية التي شُيدت أواخر عهد السلطان سليمان القانوني سنة ٩٧٤هـ، وتُعد أهم المعالم العثمانية الباقية إلى الآن، ومنها مجموعة مدارس أنشأها ولاة دمشق)[١]. وما قيل في المدارس ومراكز التعليم وقع مثله في كل أعمال الخير والمؤسسات المدنية في سوريا وبلاد الشام في تلك الفترة.

## المبحث الثاني: منظمات المجتمع المدني السوري في العصر الحديث

### أولاً: المؤسسات المدنية السورية مطلع القرن العشرين:

ورث المجتمع السوري عن العصر الأيوبي والمملوكي الكثير من المؤسسات المدنية التي ساهمت في تطوير المجتمع عبر مئات السنين، وفي ظل السلطة العثمانية تطورت العديد من هذه المؤسسات في المدن الكبرى ـ إلى حد ما ـ بينما حل محلها أنواع من الإدارات الاجتماعية العشوائية أو غير المرضية في كثير من الأرياف البعيدة والمدن الصغيرة، فشاع نظام الإقطاع بمآسيه ليملأ الفراغ الذي خلفه ضعف السلطة ومنظمات المجتمع المدني خارج المدن الكبيرة خصوصا في أواخر السلطنة العثمانية.

إثر ظهور النداءات القومية وانكفاء المجتمع التركي على نفسه ورغبة القوميات الأخرى بالاستقلال في أواخر السلطنة العثمانية انحسرت سلطة العثمانيين عن البلدان العربية بما فيها سوريا، فقامت الإدارات المدنية والسلطات الاجتماعية المحلية بما يقع على عاتقها من إدارة للمجتمع وضبطه في فترات الفراغ السياسي.

### ثانيًا: الوضع تحت سلطة الاحتلال الفرنسي:

لم تكد تتحول الإدارات المحلية السورية إلى سلطة سياسية حتى فاجأها الاستعمار الغربي المجرم الذي عمل على محاصرة هذه المؤسسات لإجبارها على خدمته. وعلى خط مواز قام الاحتلال بتأسيس الكثير من المؤسسات المدنية المناصرة له كانت تتمثل غالبا بمشافي خيرية ومدارس تعليمية ومراكز علمية وصالونات فنية وتجمعات مهنية تحمل ثقافة المستعمر.

أثناء وجود المستعمر الفرنسي تمكنت

(١) جهود علماء دمشق في رواية الحديث الشريف في العصر العثماني، ص ٣٢ ـ ٣٣.

منظمات المجتمع المدني السوري من الحفاظ على نوع من الاتزان في المجتمع السوري بفضل عراقتها وقدرتها على صناعة التحالفات الحقيقية بين كياناتها من جهة، وبين قيادات المجتمع التي تمثلت في شيوخ العشائر والمخاترة ورؤوس العائلات الكبرى في المدن والأرياف.

حافظت معظم العشائر والعوائل السورية الكبرى على خصوصياتها في ظل الاحتلال الفرنسي، فلم يستطع المستعمر اختراقها إلا في الحدود الدنيا، كما بقيت للمدارس الدينية والمؤسسات الوقفية والمراكز العلمية إداراتها الخاصة، وتمكنت بيوت العبادة المختلفة وعلى رأسها المساجد والكنائس والزوايا والطرق الصوفية، والتجمعات التجارية والمهنية في حلب ودمشق وحمص وحماة وغيرها من الحفاظ على استقلالها إلى حد مقبول، بل وتمكنت من انتخاب ممثلين سياسيين لها في المجالس النيابية المتعاقبة كما تمكنت من إدخال إداريين ووزراء يقومون بمصالحها ومصالح المجتمع في الحكومات المختلفة التي تشكلت في أواخر سني المستعمر أو عقب خروجه.

وبنظرة سريعة إلى خريطة المجتمع السوري في تلك الحقبة نجد تجمعاته ومنظماته المدنية تنقسم إلى أربعة أقسام عموما:

١ـ تجمعات على أسس مهنية، ٢ـ وأخرى على أسس دينية، ٣ـ وثالثة على أسس قبلية أو إقليمية، ٤ـ ورابعة على أسس فكرية؛ علمانية أو دينية، تشكلت نتيجة اصطدام المجتمع السوري بالثقافة الغربية المعاصرة، وانقسام المجتمع بين مناصر للثقافة الغربية الوافدة ورافض لها.

هذه التشكلات الاجتماعية ساهمت ـ بما فيها من إيجابيات وسلبيات ـ في بناء الدولة السورية المعاصرة التي نشأت في المدة القصيرة الفاصلة بين الحكم العثماني والاحتلال الفرنسي، ثم أكملت تشكلها في أواخر سني المستعمر الفرنسي وبعد خروجه.

نتجت عن منظمات المجتمع المدني السوري أحزاب سياسية حمل كل منها شيئا من خصوصيات الطبقات التي يُمثلها وأضاف إليها مثلها من المذاهب السياسية والاقتصادية المعاصرة

وقد كان لقانون العمل الذي أقر عام ١٩٤٦م دور كبير في ظهور النقابات المهنية بشكل منظم يكفل لها حقوقها. واستمر الأمر كذلك حتى حلول الكارثة بالمجتمع السوري، تلك الفاجعة التي تمثلت بوصول حزب البعث إلى السلطة في بلادنا، ذلك الحزب الشمولي الذي أخذ على عاتقه

استبدال المجتمع تماما بمجتمع هجين تصنعه مخابر البعث وأجهزته القمعية.

## ثالثًا: نموذجان من المؤسسات الاجتماعية السورية:

### جمعية النهضة العربية:

من الجمعيات التي قامت بدور اجتماعي مهم في أواخر الدولة العثمانية وحقبة الاحتلال الفرنسي (جمعية النهضة العربية) التي أسسها محب الدين الخطيب في إسطنبول عام ١٩٠٦م، ثم نقل مركزها إلى دمشق وكان من أعضائها الشيخ طاهر الجزائري وجمال الدين القاسمي، وكان هدفها رفعة العرب وخدمة لغتهم، وقد امتد أثرها حتى شمل الوطن العربي كله.

### جمعية العاديات:

ومن الجمعيات القديمة جمعية (العاديات) التي أسست عام ١٩٢٤م تحت مسمى (جمعية أصدقاء القلعة) من قبل رئيسها الشيخ كامل الغزي وبمساهمة من الأب جبرائيل رباط، ردا على قيام الفرنسيين بسرقة المحراب الأثري لجامع نور الدين الزنكي في القلعة، وقد استمر وجودها حتى يومنا وساهمت بقوة في الحفاظ على آثار مدينة حلب وطرازها الثقافي، ولكن نشاطها حُد بتوجهات حزب البعث في الربع الأخير من القرن العشرين[١].

## رابعًا: منظمات المجتمع السوري في زمن البعث:

مع انقلاب البعث انشغل قادته في الصراع الداخلي بينهم الذي امتد إلى إدارات الدولة كلها السياسية والعسكرية والاقتصادية والمدنية، ومع تغول الفريق الإجرامي الذي ينتمي إليه حافظ الأسد عمل على صناعة تحالفات شخصية ومصلحية تمتطي حزب البعث داخل معظم مؤسسات الدولة والمجتمع المدني، وعلى امتداد أكثر من عشر سنين من تسلطهم على مقاليد السياسة والجيش في البلد تمكنوا من فرض سيطرتهم على مجمل مؤسسات الدولة والنقابات المهنية وعلى عدد ليس بالقليل من منظمات المجتمع المدني.

(١) للاستزادة انظر موقع التاريخ السوري المعاصر على الشبكة ـ قسم الحياة الاجتماعية.

«وذلك أن حافظ الأسد منذ وصوله إلى السلطة أطلق مرحلة جديدة تحت اسم الحركة التصحيحية، كان أهم عناوينها تشكيل جبهة وطنية انضوت فيها معظم الأحزاب السياسية ذات التوجه القومي واليساري واستبعدت منها بقية الأحزاب، كما جعل من حزب البعث حزبا قائدا للدولة والمجتمع في دستور عام ١٩٧٣م، كما نصبت الجبهة في بيانها حزب البعث رئيسا للجبهة مدى الحياة.

بجعل حزب البعث قائدا للدولة والمجتمع هيمن على النشاط المدني والسياسي في المجتمع، ورغم أن السنوات الأولى من حكم الأسد الأب شهدت نشاطا مجتمعيا ونقابيا واسعا إلا أنها انحصرت جميعها تحت هذا العنوان وتحولت الجمعيات الأهلية والمنظمات والأحزاب والمؤسسات المدنية إلى أذرع وأدوات للحزب القائد.

ومن المنظمات التي تأسست في عهده طلائع البعث والشبيبة والاتحاد النسائي واتحاد العمال التي هيمن عليها الحزب وجعل أهدافها تحقيق أهدافه وهي الوحيدة المسموح لها بالعمل على قضايا المرأة والشباب والعمال بالإضافة للاتحاد الوطني للطلبة الذي ينظم الحياة الاجتماعية والسياسية لطلاب الجامعات والذي عدل نظامه الداخلي ليصبح نشاطه مقتصرا على حزب البعث العربي الاشتراكي»[١].

بقيت بعض المؤسسات المدنية خارج السيطرة، فاتخذ نظام الأسد من أحداث الثمانينيات جسرا يصل به إلى أهدافه، فنشر الخوف وبالغ بالتصعيد العسكري واستأصل عوائل وتيارات كاملة قتلا أو تهجيرا، وأعلن حالة الطوارئ المستمرة التي استخدمها لقمع أي حركة تعترض سلطته، وقام من خلالها بتدمير كل من الأحزاب ومؤسسات المجتمع المدني في البلاد، وقد تم له ذلك تدريجيا، فالأحزاب إما ألغيت أو غدت أدوات لتبرير سلطته الجائرة.. وأما الجمعيات ومنظمات المجتمع السوري فقد أصدر قرارات متتابعة حدت من قدرتها على التحرك ليتم إغلاق أكثرها لاحقا ومصادرة أملاكها، أما المؤسسات الوقفية التي كانت معنية بإدارة المساجد ودور العبادة ودعم التعليم الديني ومساعدة أصناف من المحتاجين؛ فقد همشها من الناحية الإدارية والقانونية وسلط عليها رجالاته حتى أفقدها استقلاليتها وأتبعها تماما لسلطة حزب البعث ورجال الدين المؤيدين له.

## جمعية النهضة الإسلامية نموذجًا:

من الجمعيات التي نشطت في حلب منتصف القرن العشرين وأحدثت نهضة اجتماعية واضحة (جمعية النهضة الإسلامية) التي أسسها تلاميذ الشيخ محمد النبهان طيب الله ثراه، عام ١٩٦٠م

(١) موقع الأيام ـ تاريخ منظمات المجتمع المدني في سوريا.

وقد أُسِّست بقدرات مالية كبيرة شاركت فيها معظم عوائل حلب الغنية، ونشطت في المجال الاجتماعي والإغاثي والتعليمي والصحي والثقافي والفني، فأنشأت العديد من مراكز التعليم المتطورة وواجهت بها مؤسسات التعليم التبشيرية المدعومة من الغرب، واستهدفت نشاطاتها الأطفال والبالغين وخصوصا أبناء الأرياف والأيتام، وكان منها (مؤسسة التدريب المهني للإناث) التي استهدفت تدريب الفتيات اليتيمات على مختلف المهن، كما نشطت في مجال تأسيس المراكز الطبية، وحسب وثائق الجمعية بلغت الأسر التي تعيلها الجمعية عام ١٩٦١م (١٦٠٠) عائلة، وبلغ عدد المستفيدين من خدماتها الصحية عام ١٩٦٣م وحده (٤٧٨٧) مريضا، وقد أقامت الجمعية معرضا لإنتاجها الفني في حلب عام ١٩٦٦م ونالت عنه شهادة تقدير المحافظة، كما أقامت معرضا آخر في دمشق. وكان من أعمالها مكافحة التسول ودعم دور العجزة والأيتام بالتعاون مع المؤسسات الحكومية في حلب.

استمر نشاط الجمعية بقوة حتى وفاة السيد النبهان عام ١٩٧٤م، حيث تم التضييق عليها تدريجيا حتى صودرت قريب عام ١٩٩٠م ولم يسلم من مؤسساتها الكثيرة إلا بعض المراكز التعليمية المعدودة، وبعض النشاطات الخيرية القليلة[١]، منها مدرسة الإناث المهنية سالفة الذكر، ومدرسة الكلتاوية للتعليم الشرعي، التي أسست عام ١٩٦٤م في موضع المدرسة التي أسسها الأمير المملوكي طقتمر الكلتاوي (ت٧٨٧هـ). وقد صودرت أملاك الجمعية، وأغلقت بقرار من نظام الأسد استهدف حينها معظم المؤسسات المدنية حوالي عام ١٩٩٠م.

مدارس الكلتاوية بعض ما بقي من نشاط جمعية النهضة الإسلامية

> الكلتاوية يعود بناؤها إلى الأمير المملوكي طقتمر الكلتاوي (ت٧٨٧هـ)

(١) كتاب السيد النبهان ـ الشيخ هشام عبد الكريم الألوسي ج١ ص ١٩٥ وما بعدها.

## المبحث الثالث: منظمات المجتمع المدني السوري بعد الثورة

### الواقع والمستقبل

#### أولاً: مؤسسات مدنية تبدأ من الصفر

كانت ثمة العديد من النقابات، والاتّحادات المهنية، والمنظمات الطلابية وغيرها في سورية قبل عام ٢٠١١، لكن لا تنطبق عليها صفة «المجتمع المدني» أو فقدت هذه الصفة لاحقا؛ كونها تأسست أو تم إخضاعها للسلطة بموجب سلسلة من القرارات والقوانين التنظيمية بين عامي ١٩٦٣ و١٩٨١م، وأصبحت جزءًا من أجهزة الدولة الشمولية فيما يُصطلح عليه رسميًّا بالمجتمع الاشتراكي، الذي أنهى دور القطاع الثالث في حماية حقوق السوريين من هيمنة القطاع العام وحتى الخاص لاحقًا[١].

قام نظام آل الأسد عبر سني حكمه الطويلة والمظلمة بتدمير شبه كامل للمجتمع عبر تدمير المؤسسات وإفقاد المجتمع القدرة على العمل الجماعي أو التواصل إلا في ظل حزب البعث وفيما يتبع له من فرق وشعب، أو نقابات مهنية تمت السيطرة عليها بقوة السلاح وبطش المخابرات، فكانت الفئة الوحيدة القادرة على العمل الجماعي والممارِسَة للعمل الإداري هي الفئات المنتسبة لحزب البعث، والتي تترق في سلم الأولويَّات بمعيارين: الأول الولاء المطلق لآل الأسد، والثاني القدرة على ممارسة الفساد.

وإلى جانب تدمير العمل الجماعي وحظره، قام نظام البعث ببث الفرقة بين أبناء الشعب على أسس طائفية أو إقليمية أو عرقية، ثم قام بتدمير العلاقة بين الأفراد عبر نظام الوشاية بالآخرين الذي غدا أقرب طريق لإثبات الولاء للبعث والحصول على امتيازات حزبية أو وظيفية.

مع بداية انطلاق الثورة وجد المجتمع السوري نفسه بحاجة إلى مرجعيات وتجمعات مدنية وسياسية قادرة على صياغة قرارات الثورة في مواجهة فجور نظام الأسد، الذي عمل جاهدا على تقسيم صفوف الثوار وتنويع أشكال الحرب عليهم، ولكن للأسف لم يجد المجتمع السوري في داخله ـ نظرا إلى الخوف والرعب والملاحقة الأمنية التي عاشها ـ أي رابطة تجمع أطيافه، فبدأ أبناء كل منطقة يقومون بجهود ارتجالية لإدارة شؤون الثورة عبر التنسيقيات، أو إدارة شؤون المناطق المحررة عبر مجالس محلية مؤقتة.

كان المجتمع السوري يبدأ كل شيء من الصفر، ومع هذا نجح بملء الفراغ الإداري في بدايته، ولكن عدم وجود خبرة عملية بالإدارة أو العمل الجماعي والتخطيط البعيد كان حائلا دون الاستمرار بالقدرة على الإدارة طويلة الأمد التي ألقت بأعباء كثيرة على من يتصدى للقيام بشؤون

(١) جسور ـ دراسة بعنوان تجربة المجتمع المدني السوري.

الناس، مما فتح الطريق أمام الفاسدين من البعثيين القدامى الذين تربوا على المنافع الشخصية والفساد والخداع فاخترقوا كثيرا من مؤسسات المجتمع السوري الناشئة وحولوها إلى مزارع خاصة لمصالحهم ومصالح عوائلهم ومن يلوذ بهم من المتنفِّعين... ولا زال المجتمع السوري يعاني إلى اليوم من كلا الأمرين: ١ـ عدم القدرة على الإدارة والعمل الجماعي. ٢ـ تسلط عدد ليس بالقليل من المتنفعين والفاسدين المتسترين بستار الثورة على مؤسسات المجتمع السوري في الداخل المحرر أو في المهجر، ولم ينج من ذلك إلا القليل النادر من المؤسسات التي رفدت كوادرها في الغالب بشخصيات سورية تربت خارج بلادنا ومارست الإدارة في مؤسسات عصرية.

إن استمرار منظمات مجتمعنا بالوضع الحالي يعني استمرار أمراض الأنانية والشخصنة وحب الفرقة وكراهية التعاون وسوء الظن ورفض الآخر التي زرعها النظام المجرم في الشعب، ومما يعني بطبيعة الحال استمرار طغيان آل الأسد والاحتلال الأجنبي وعدم وجود أمل في تكتل الشعب السوري على قضيته أو حلها بما يضمن حقوقه.

إن معظم ما نراه من أخلاقيات سلبية في أبناء مجتمعنا في هذا المجال أو غيره يعود إلى نمط العيش الفردي الذي يحكم رؤاهم وسلوكياتهم، وعلاجها يبدأ من تجميع خامات الشعب ـ وهي كثيرة ـ في مؤسسات مدنية يمارسون فيها الحياة الجماعية المتحضرة التي ميز الله بها البشر.

## ثانيًا: تنظيم مؤسسات المجتمع المدني هو الحل

إن علاج الإشكالية السورية يكمن في معالجة الأمراض الاجتماعية التي يعاني منها شعبنا، فإن كان يرى البعض مشكلتنا سياسية فمن خلال مراقبتي لواقعنا وما يعرض لتشكيلات المجتمع السوري من أحوال أراها مشكلة اجتماعية فكرية وعمليّة بامتياز، مع عدم نكران الإشكالية السياسية.

فما نعيشه اليوم من إشكاليات سياسية هو نتاج سفالة الواقع الاجتماعي والفكري والعملي الذي تلطخنا به بعيشنا تحت سلطة آل الأسد. ولو فرضنا مثلا أن المجتمع السوري استطاع اليوم أن ينشئ أحزابا ودخل حياة سياسية حرة ماذا ستكون النتيجة؟ لن تكون ثمة نتيجة حقيقية لهذه الأحزاب لأن المؤسسات المجتمعية التي تمثل حلقة وصل بين السياسيين والشعب غير موجودة.

وهنا أضرب مثلا **بالائتلاف السوري المعارض** لبيان الحاجة إلى المؤسسات الاجتماعية للوصل بين السياسيين والمجتمع، مؤسسة الائتلاف من حيث هي مؤسسة وظيفية فاقدة للشرعية ـ في نظر الكثيرين من أبناء الشعب السوري أو أطياف الثورة ـ، والكثيرون يطالبون باستبداله بأشخاص أصحاب مواقف حقيقية تعبر عن تطلعات شعبنا وحاجاته. وبتقديري فإن السؤال الأهم الذي يجب أن نسأله ما النتيجة لو تم استبداله اليوم؟

**الجواب بسيط**: سيكون لدينا مجلس أكثر وطنية في تصريحاته ولكنه كالائتلاف الحالي لا يملك شيئا سوى الكلام، لأن المؤسسات الاجتماعية الوسيطة بين الممثل السياسي والفرد غير موجودة أصلا، وهي الوحيدة الكفيلة بتعبئة الشعب خلف قيادته السياسية المستقلة التي ستكفل كسر الجمود الذي يلف القضية السورية.

وكمثال آخر لو فُرض أن الحكومة السورية في المناطق المحررة مُكِّنت من سلطة تامة في شمال سوريا، في ظل العشوائية التي تحكم روابطنا الاجتماعية ماذا ستكون النتيجة؟

**الجواب**: ستكون لدينا طبقة سياسية ضائعة أو متسلطة لا ترى أمامها مؤسسات مجتمع قادرة على المساعدة أو على المحاسبة والحد من فساد السلطة. **وستكون الصورة بهذه البساطة: (حكومة عاجزة بسُلطة لا محدودة في مقابل شعب متفرق معتاد على الفوضى أو الانضباط بقوة السلاح، في ظل عدم وجود مؤسسات مدنية تتحدث باسمه وتحل قضاياه سلميا وفق القوانين والأعراف).**

إن من واجب قادتنا اليوم أن يقوموا بخطوات عملية ومدروسة على طريق إعادة تجميع الشعب السوري وتفعيل الروابط بين أفراده ضمن منظمات مهنية واجتماعية أو فكرية أو عملية أو غير ذلك مما يربط الأفراد ببعضهم البعض. وبدون ذلك فإن أي إصلاح أو بناء للمجتمع على أسس سياسية وحزبية أو عسكرية هو بناء على الماء. فالأرضية الصلبة للدولة والمتمثلة بالمجتمع هي ما يجب العناية به أولا وقبل كل شيء.

## ثالثًا: تجربة إنشاء روابط مهنية سورية في تركيا

إثر المشاكل التي عانى منها اللاجئون السوريون في تركيا عموما وفي إسطنبول خصوصا عام ٢٠١٩م، عَرَضْتُ على مجموعة من الناشطين السوريين المستقلين في تركيا والداخل وأوروبا فكرة العمل على إنشاء روابط مهنية سورية، وقمنا بالتحضير للقاء عام يكون كالمدخل لهذا المشروع يجمع شخصيات من كافة النخب السورية تمثل مختلف الشرائح المهنية، وقد عقد اللقاء بنجاح تحت اسم (السوريون في تركيا الإشكاليات والحلول) بتاريخ (١٧ / آب / ٢٠١٩م) وشاركت فيه شخصيات من كافة شرائح المجتمع، وكانت كلمة الحضور متفقة على حاجة السوريين في تركيا إلى روابط ـ تحاكي النقابات ـ تقوم على أسس مهنية تقوم برعاية المنتسبين إليها، فتكون لدينا رابطة واحدة لكل الأطباء وأخرى للمهندسين وثالثة للمعلمين، ويكون لدينا اتحاد مستقل للطلبة وآخر للعمال، بحيث تكون هذه الروابط الممثل الوحيد للسوريين أمام الحكومة التركية والإدارات الدولية، من خلال مجلس موحد يجمع ممثليها، وفي الوقت ذاته تهيئ داخلها جوا حضاريا يتمثل

بالتبادل المنظم للقيادة والتدرب على الإدارة لتتكوَّن لدى أبناء شعبنا فكرة إدارة الدولة بشكل عملي.

مع الأسف لم تحظ هذه الخطوة بالمتابعة لأسباب مختلفة، من أهمها رفض العديد من المنظمات المجتمعية السورية المؤثرة في إسطنبول التعاون مع مثل هذه الخطوة، ومنها فقدان الشباب الطامح الأمل في إحداث تغيير حقيقي لكثرة خيبات التجمعات التي شاركوا فيها خلال السنوات السابقة، ومنها الحديث عن نقابات مستقلة ومهنية غير خاضعة لتوجه سياسي أو لون فكري خاص، مما جعل الكثيرين من القادرين على رعاية هكذا مشاريع يحجمون عن ذلك، إثر الاستقطاب اليميني واليساري الحاد الذي برز في مجتمعنا نتيجة للنكبات التي لحقت بالثورة منذ ٢٠١٥م.

رغم ذلك وُجِدت خطوتان لتنفيذ هذا المشروع، كانت إحداهما بتنظيم رابطة للمعلمين السوريين، أنشئت وتم التوافق على قانونها الداخلي ولم يكتب لها الظهور إلى العلن لأسباب منها مادية، ومنها ما هو متعلق بأصحاب الشهادات المزورة التي رأت فيها خطرا عليهم، وبعض الشخصيات السورية والتركية التي عمل أصحابها على إقامة كيانات موازية حاولوا من خلالها القيام بخطوات استباقية لإفشال أي مشروع قد يؤثر على مصالحهم الضيقة في مجال التعليم.

أما الخطوة الثانية فتمثلت بقيام مجموعة من الطلبة السوريين الذين شارك بعضهم في لقائنا الأول ـ الذي كان باسم **السوريون في تركيا الإشكاليات والحلول** ـ بإنشاء اتحاد واسع لطلبتنا في تركيا، وقد نجحوا في إنشاء روابط محلية للطلاب في مدن مختلفة ثم قاموا بجمع ممثليها في اتحاد موحد يمثل آلاف الطلبة، وأُعلن عنه بشكل رسمي في احتفال كبير شاركت فيه العديد من المؤسسات السورية، ولكن للأسف لم يحظ بعد الحفل الافتتاحي بدعم حقيقي من المنظمات السورية القادرة على الدعم المادي والمعنوي والإعلامي، مما يجعل الجهود الكبيرة التي بذلت في تأسسيه في مهب الريح.

## رابعًا: المفاضلة بين التنظيم السياسي والاجتماعي:

توجد العديد من المراكز السورية القادرة ماديا ومعنويا على تأسيس روابط مهنية سورية يمكن لها أن تسهم في تحسين الوضع السوري في تركيا والداخل المحرر، ولكنها مع الأسف تنطلق من رؤى فكرية مجردة لتأسيس وجودها السياسي الذي تود من خلاله خدمة شعبنا، وتغفل عن أهمية الانطلاق من الفئات العمالية والمهنية نحو المشاريع السياسية المرتجاة.

إن المنظمات المدنية هي ما يمثل حلقة الوصل بين الأحزاب السياسية وأفراد الشعب، وبدون

هذه المنظمات الوسيطة ستبقى الجهود السياسية الفكرية عبارة عن حبر على ورق، لا يعدو تأثيرها المؤسسين ومن حولهم، لفقدانها أدوات التواصل مع الجماهير، وإذا كانت تسعى إلى إيجاد تأثير سياسي حقيقي لها في الحياة السورية فإن الخطوة الأولى تكون بإنشاء منظمات المجتمع المدني السوري، ثم التنافس بين الأحزاب السياسية على قيادة هذه الروابط وإقناعها بفلسفاتها السياسية ضمن جو من الحرية الذي يضمن للجميع حرية اختيار ما يراه خيرا لمستقبل شعبنا.

بهذه الطريقة يمكن للمنظمات المدنية السورية أن تسهم في تحسين وضع المجتمع السوري في الخارج والداخل وتحرير المدن السورية ضمن الظروف المتاحة، بل والإسهام في صناعة الحياة السياسية العادلة التي افتقدناها تحت سلطة البعث.

## خامسًا: واقع المنظمات السورية في تركيا:

مؤسسات العمل المدني في تركيا تكاد تنحصر في نوعين؛ **الأول**: ما قام بمهام جيدة في الحفاظ على الشعب السوري وتثقيفه والعمل على ترابطه، **والثاني**: مؤسسات لم تَعْدُ كونها منظمات للارتزاق يديرها بعض الذين تربوا على أخلاق البعث وتشبعوا بسلوكياته.

وبنظرة عامة إلى عدد اللاجئين السوريين في تركيا والمهام المتوقعة من قادته وواقع منظماتنا المدنية فإننا بكل أسف نستطيع أن نقول إن منظمات المجتمع المدني السورية في تركيا هي الأضعف والأقل تأثيرا مقارنة بحجم الجالية ومواردها والفرص المتاحة لها.. فلا نرى لدى المنظمات السورية الجهد المتوقع لتحسين الوضع السوري في تركيا والداخل المحرر فضلا عن وضع خطط للتواصل مع أبناء شعبنا في الداخل المحتل ودعم صموده في ظل الإجرام الواقع عليه وسياسة التجويع التي اتبعها النظام الفاسد قبل العقوبات الأمريكية، وطورها بعدها للضغط على الشعب والمجتمع الدولي.

## سادسًا: محاور أخرى للعمل الاجتماعي السوري:

إلى جانب الروابط والنقابات المهنية التي ذكرت سابقا وعقدت لأجلها اجتماعات كثيرة وصرفت جهود ليست بالقليلة ثمة عدة محاور أخرى يحتاج شعبنا إلى تكثيف الجهد فيها للحصول على نتائج عملية تسهم في عدالة قضية شعبنا الذي تعرض للتهجير والاضطهاد القسري على يد النظام المجرم ودول الاحتلال. وسأذكر بعضا منها:

### محور مواجهة التبشير الشيعي والاحتلال الإيراني:

من أهم الملفات التي تعني المنظمات السورية

عموما والمتواجدة في تركيا خصوصا ملف مواجهة التبشير الشيعي في المدن السورية الواقعة تحت الاحتلال الإيراني والروسي، فالشعب يعاني الجوع والفقر والمرض والإذلال في تلك المناطق وتقوم المنظمات الإيرانية بابتزازه لإجباره على التشيع، كما تقوم بكفالة الأطفال اليتامى وتنشئتهم على المعتقدات الإجرامية وتجنيدهم ضمن القوات العسكرية الإيرانية الرديفة.

وليس الوضع خافيا في هذا الموضوع فقد كثرت الدراسات التي توصف الواقع المحزن الذي وصلت إليه بلادنا في هذا الميدان، كما كثرت مواقف الشجب والتنديد التي تستنكر ما يقوم به الإيرانيون دون وجود خطوة عملية على الأرض المحتلة.

إن المؤسسات الدينية والخيرية السورية يقع على عاتقها تخصيص شيء من برامجها ومواردها لدعم صمود أهلنا في الداخل المحرر، وإيجاد طرق آمنة لإيصال المساعدات للجهات الدينية المخلصة التي لا زالت تعمل على تثقيف شعبنا في المناطق المحتلة، لتقوم بمشاريع خيرية وعلمية تخفف من حجم المأساة التي يصنعها التغول الإيراني معتمدا على فقدان مراكزنا العلمية أي دعم حقيقي من مثيلاتها في الخارج عموما وتركيا خصوصا.

معظم الجمعيات الخيرية السورية المعنية بالتعليم الديني تقوم بجهود جبارة في ميدان التعليم في الداخل المحرر أو في تركيا، ولعله من الصواب أن تقوم بنقل نصف مشاريعها إلى الداخل المحتل وتنفيذها عبر دعم سري ومدروس للفئات السورية في المناطق الواقعة تحت الاحتلال، بغية مواجهة التبشير الديني الشيعي. وقد قامت بعض المنظمات السورية بخطوات توعوية في هذا الاتجاه منها ما قام به المجلس الإسلامي السوري من إصدار دراسة مطولة من تأليف الأستاذ مطيع البطين بعنوان (الاحتلال الإيراني لسوريا الممارسة والمواجهة) يتضمن توثيقا جيدا للواقع وطرحًا لأساليب للحل، يمكن أن يستفاد منها في خطوات عملية لاحقة.

## المنظمات الحقوقية في المجتمع السوري:

التجمعات السورية التي اختصت في مجال العدالة وحقوق الإنسان كان لها أثر واضح في القضية السورية على المستوى العالمي، فمن جهة عرَّفت الرأي العام العالمي على واقع الإجرام الأسدي مدعما بالصور والأدلة والأحكام القانونية، ومن جهة أخرى أمنت محاكمة بعض المجرمين الذين شاركوا بجرائم خطيرة ضد المدنيين، مما دفع دولا عدة للتراجع عن خطواتها للتقارب مع نظام الأسد. وقد حقق التنسيق العالمي بين هذه المنظمات السورية لسنواتٍ عدةٍ نجاحا جيدا عبر دفعها الإدارة الأمريكية نحو إقرار قانون قيصر الذي أوقف جهود الروس لفك العزلة الدولية عن النظام المجرم، وإعادة تعويمه.

ومن المرجو من هذه المنظمات أن تضيف إلى خطط عملها لعام ٢٠٢١م التحقيق في انتهاكات حقوق اللاجئين السوريين في بعض دول الجوار ورفع دعاوى قضائية ضد المسؤولين أو الإعلاميين الذين ساهموا في خلق خطاب عنصري آذى ملايين اللاجئين الأبرياء، وأزهق أرواح بعضهم. وخاصة في لبنان التي يتعرض فيها أبناء شعبنا لاضطهاد التيارات الموالية لآل الأسد وإيران.

وكما استفادت هذه المنظمات من الوضع السياسي الأمريكي الذي طرأ في فترة ترامب وأمنت إقرار قانون قيصر، فإن أمامها مهمة ليست بالسهلة تتمثل بوضع خطة عمل للقضية السورية ضمن الوضع السياسي العالمي الجديد الذي يتشكل جزء منه بانتخاب جو بايدن رئيسا لأمريكا، مع ما يحمله فريقه من خطط للصدام مع روسيا وتركيا والتقارب مع إيران.

إن الجاليات السورية في الغرب مع ما تملكه من قدرة على التنسيق قادرة على الاستفادة من كافة نقاط الوضع العالمي الجديد وعلى رأسها الخلاف الأمريكي الروسي والمصري الأوربي، والتقارب التركي السعودي، والخليجي الخليجي أو حتى التركي المصري، وواجب المؤسسات المدنية السورية في تركيا يتمثل في التواصل مع المؤسسات الأخرى الموجودة في أوربا وباقي دول العالم والتنسيق معها بدل العزلة عن الآخر، أو التخندق خلف الخلافات الدولية والابتعاد عن بوصلة القضية السورية.

## منظمات رعاية المعتقلين السوريين:

المحور الثالث المكمل لقضايا العدالة هو محور السجون، فقضية المعتقلين السوريين لدى نظام الأسد أصبحت واضحة للعيان، أمام الشعوب وفي المحافل الدولية، والمرحلة التالية في هذا الاتجاه ينبغي أن تتمثل في تحويل هذه الجهود إلى واقع عملي، عبر التفاوض من خلال الأمم المتحدة مع نظام الأسد على تبييض السجون مقابل تخفيف العقوبات المفروضة عليه، أو مقابل استمرار أعمال مبعوثي الأمم المتحدة التي يجد نظام الأسد من خلالها وسيلة للتواصل مع الخارج.

ثمة الكثير من المنظمات التي تعنى بشؤون المعتقلين وذويهم، ومن الضروري جمعها تحت سقف واحد ووضع خطة عمل يشارك فيها الجميع تهدف إلى إثارة رأي سوري موحد يجعل مسألة تبييض السجون شرطا أساسيا لأي خطط تطرحها الدول الكبرى للتفاوض أو المشاركة في الحلول المطروحة للقضية السورية.

هذه بعض المحاور التي يمكن أن يجتمع عليها أبناء شعبنا وتعمل عليها المنظمات المدنية إن توفرت على تنسيق جاد وتخطيط حقيقي طويل الأمد.

## خاتمة في أركان العمل المجتمعي

لمنظمات المجتمع المدني ثلاثة أركان رئيسية تقوم عليها وهي: ١ـ الفكر والتخطيط السليم ٢ـ الإرادة الحقيقية لتنفيذ الخطط ٣ـ الدعم المادي لإقامة المشاريع.

في نقاشاتنا الطويلة حول الواقع المتردي لمنظماتنا الاجتماعية في تركيا كثيرا ما ينسب الفشل إلى الجانب المادي، وهذا ليس السبب الوحيد كما يتوهم كثيرون، فقد جاءت أموال كثيرة في سنوات الثورة الأولى من أصدقاء الشعب السوري ومن أبنائه الأجواد، وصُرف كثير منها بشكل عشوائي لعدم وجود الفكرة المنتجة والمؤسسات المنظمة القادرة على توظيف المال بشكل صحيح.

نعم في السنوات الأخيرة تعاني المسألة السورية من ضعف التمويل فقد اشتد الفقر وزادت المتطلبات وقلت السيولة، وأعرف أناسا أفرغوا كل مدخراتهم النقدية وأرسلوها لتوزيعها على المحتاجين، ونساء بِعن ما يملكن من ذهب وتصدقن بثمنه على الفقراء وآخرين وأخريات، وعرفت عاملين في مجال الإغاثة، يقفون أمام مشهد مؤلم وليس في يدهم مورد للمساعدة فيقسمون ما في جيوبهم من أموالهم الشخصية بينهم وبين المحتاجين، أو يبقون بلا شيء.

نأمل أن تتحسن الأوضاع، لكن إن تحسنت الموارد المالية ولم تسبقها الفكرة والجسم العملي الذي ينفذها فلن يجد المال مصارفه الصحيحة، إن الأولوية اليوم تكمن في إنشاء الأجسام المدنية التي يحتاجها شعبنا، فوجود الفكرة الصحيحة والإرادة القوية قد يصنع المال وإن لم يستطع فإنه يعمل ضمن الجهود التطوعية الممكنة، أما إن وجد المال ولم تسبقه فكرة وإرادة حينها تكون الكارثة، يتصدر اللصوص وغيرُ الأكفاء، وتضيع الأموال التي يمكن أن يكون من دفعها حرم نفسه وعائلته ليقدم خيرا لأمته وشعبه.

**فالفكرة الصحيحة أولا والإرادة ثانيا، وأخيرا المال، وقد علمتنا سنوات الثورة الطويلة أن الفكر السليم والإرادة الصلبة إذا اقترنا يصنعان الحلول ويصنعان المال، ولكن المال مهما كثر لا يصنع فكرة ولا يولد إرادة.. كما علمتنا أن الحلول التي لا نصنعها بأيدينا لا يمكن أن تكون أبدا لمصلحتنا.**

# لمحـــة عـــن

# المجلس الإسلامي السوري

مع بداية الثورة السورية المباركة تشكلت في الداخل السوري الهيئات والروابط الشرعية لتسد الفراغ الحاصل من غياب مؤسسات الدولة وانحسارها في المناطق المحررة، على صعيدٍ آخر شهد عام 2011 مبادرات لإيجاد كيان جامع موحد من قبل العلماء والروابط التي أجبرها النظام على الاغتراب.. وعلى خطى التوحيد اجتمع نحو ٤٠ رابطة وهيئة شرعية في منتصف نيسان 2014 ليعلنوا تأسيس «المجلس الإسلامي السوري»، الذي ضم العلماء والهيئات الشرعية والروابط العلمية السورية، ليكون قرارًا مشتركًا يعبر عن إرادة موحدة لرموز المدارس الفكرية الإسلامية المعتدلة في سوريا.

## الهوية

هيئة مرجعية شرعية وسطية سورية، تسعى إلى جمع كلمة العلماء والدعاة وممثلي الكيانات الشرعية، وتوجيه الشعب السوري، وإيجاد الحلول الشرعية لمشكلاته وقضاياه، والحفاظ على هويته ومسار ثورته.

## الرسالة

ترسيخ المشروع الإسلامي وتفعيل دور المؤسسة الدينية في المجتمع السوري.

## الرؤية

تمكين المرجعية الإسلامية للشعب السوري من الاضطلاع بدورها الريادي في المجتمع.